

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث من طه حسين إلى الطيب صالح

د. كمال عبد الملك
منى الكحلة

منتدى سور الأرتكية

www.books4all.net



منتدی سور الازبکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET

[*https://twitter.com/SourAlAzbakya*](https://twitter.com/SourAlAzbakya)

<https://www.facebook.com/books4all.net>



صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

من طه حسين إلى الطيب صالح

الكتاب:

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث
من طه حسين إلى الطيب صالح

إعداد وتقديم:

د. كمال عبد الملك ومنى الكحلة

التصنيف:

أدب شرق وغرب

الناشر: مدارك إبداع، نشر، ترجمة وتوزيع

الطبعة الأولى، فبراير (شباط) 2011

الرقم الدولي المنسلسل للكتاب: ISBN 978-9953-566-36-8

الكتاب متوفر على الإنترنت:

مكتبة نيل وفرات، كوم

www.nwf.com

Madarek مدارك
Covering, Publishing, Translating & Archiving — تغطية، نشر، ترجمة وتصميم

Tel.: 00961 1 282075 Fax: 00961 1 282074

Gharios Center, Fom Elchebbak, Beirut - Lebanon

www.mdrek.com read@mdrek.com

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لمدارك.
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق
استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من مدارك.

صورة أوروبا في الأدب العربي

من طه حسين إلى الطيب صالح

منتدى سور الأزيكية

www.books4all.net

إعداد وتقديم

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

تمهيد

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث من طه حسين إلى الطيب الصالح

في نيسان/أبريل 1930، وفي الجامعة المصرية المبنية حديثاً، التقى عباس محمود العقاد (1889 - 1964) بسلامة موسى (1889 - 1964)، وهما اثنان من الكتاب الأكثر نفوذاً في مصر، لمناقشة مقولة الشاعر الإنجليزي كيبلنج الشهيرة حول الشرق والغرب وكيف أنهما ضدان لا يجتمعان. أكد العقاد أنه يتفق مع رأي كيبلنج، فردّ عليه سلامة موسى: «لا، يمكن إيجاد أرضية مشتركة للتفاهم بين الشرق والغرب لأن كليهما ينتمي إلى أسرة بشرية واحدة ومصير بشري واحد».

وأوضح موسى أن الإمبريالية الغربية تريد من الشرق أن يبقى شرقياً، أي متخلفاً، حتى يمكن أن تحتفظ بسيطرتها عليه، وأن المحافظين والرجعيين في الشرق يساعدون عن غير قصد الإمبرياليين بإصرارهم على إبقاء منطقة الشرق متخلفة وممزولة عن الحضارة الغربية. والأمل الوحيد لتخليص الشرق من الخمود

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

والتخلف، كما أكد سلامة موسى، يكمن في اعتماد القيم والممارسات الغربية بالكامل. ولكن المقاد عارضه القول مؤكداً أن عدم التوافق بين الهوية الروحية للشرق والنزعة المادية للغرب يمنع أي لقاء بينهما.

هذه المناظرات والمناقشات الفكرية والتي تُظهر المواقف المتباينة من الغرب والحضارة الغربية تتجلى أيضاً في العديد من الأعمال الإبداعية العربية البارزة لهؤلاء الكتاب الكبار:

1. طه حسين: أديب (1935).
2. توفيق الحكيم: عصفور من الشرق (1938).
3. يحيى حقي: قنديل أم هاشم (1944).
4. سهيل ادريس: الحي اللاتيني (1954).
5. الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال (1967).

وهذه الروايات يمكن أن نسميها «روايات المفتربين» وقد مرت بثلاث مراحل: الأولى يكون فيها بطل الرواية قد حمل كل عاداته المحلية معه إلى بيئته الجديدة في الغربة، أي أن انتقاله إلى أوروبا كان انتقالاً مكانياً. ويمثل هذه المرحلة خير تمثيل، توفيق الحكيم. في المرحلة الثانية يكون فيها البطل قد درس في أوروبا وحصل على شهادة، وعاد إلى بلده من دون أن يتمكن من الانسجام مع بيئته الأولى. تمثل هذه المرحلة رواية «قنديل أم هاشم» ليحيى حقي، و«موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح.

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

المرحلة الثالثة هي التي يمزّ بها الروائيون المفتربون في الوقت الحاضر. وفيها يدرس البطل الروائي في الغرب، ولكن الغرب هنا أصبح أمريكا. تمثل هذه المرحلة روايات معاصرة مثل: «أمريكانلي» لصنع الله إبراهيم، و«شيكاجوه» لملاء الأسواني و«بروكلين هايتس» لميرال الطحاوي. ومع رواية «بروكلين هايتس» التي نشرت عام 2010 نجدنا، وربما للمرة الأولى، أمام مفترية عربية تمثل الشرق في هذا اللقاء الحضاري مع المجتمع الغربي - الأمريكي وهذا تحول لافت للنظر (انظر كتابنا، «أمريكا في مرآة عربية»، 2011).

نقدم للمقارئ في هذا الكتاب نماذج مهمة من الروايات العربية التي وقمت أحداثها في أوروبا وقدمت شخصيات أوروبية، والتي تغطي الفترة الواقعة بين 1935 وحتى عام 1967، ونأمل في المستقبل القريب أن ننشر دراسة تحليلية عن صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث كما تتجلى في هذه المختارات.

كمال عبد الملك ومنى الكحلة

دبي، يناير 2011

المقدمة

أوروبا والإسلام، ولم لا يتفاهمان؟

محمد حسين هيكل

أوروبا والإسلام، ولم لا يتفاهمان؟⁽¹⁾

أما أنه ليس هناك تفاهم بين أوروبا والإسلام فهذا أمر لا شك فيه. غير أن كثيراً من الأوروبيين يرجعون هذا إلى الدين، وهم يقولون إن المسيحية والإسلام عاشا في خصومة مستمرة منذ ثلاثة عشر قرناً، ولذلك كان من الطبيعي أن ينشب بينهما الخلاف، وأن لا يتم التفاهم بين أوروبا والإسلام. تلك فكرة مخطئة، وإذا كان فيها ظل من الحقيقة فهو بمقدار ما في قولنا إن فرنسا وإنجلترا لم تستطعا التفاهم قبل سنة 1914. فقد

(1) وكانت صحيفة - الكاييه دي سيد - التي تصدر في فرنسا قد بعثت إلى الدكتور هيكل تطلب إليه أن يكتب مقالا بالفرنسية لينشر في العدد الذي خصصته هذه الصحيفة - للإسلام والغرب - فبعث إليها بهذا المقال عن أسباب عدم فهم أوروبا للإسلام وما يراه من الوسائل الكفيلة بخلق تفاهم بينهما. وقد ترجمه الأستاذ أحمد عبد الغفار المحامى.

كانتا قبل هذا التاريخ عدوتين كأشد ما تكون عداوة ونفرة وخصاماً. وليس من السهل على إنسان يحكم عقله في ما يمرض له من مظاهر أن يقبل نقاشاً من هذا النوع، إذ إن هاتين الدولتين متفاهمتان تفاهماً تاماً، وليست الأفكار الديمقراطية التي شاعت في فرنسا سنة 1789 إلا نفس الأفكار التي جاءت بها الثورة الإنجليزية في سنة 1688، وهي التي هيأت لما نتج عنها تطورات. وهذا نفس ما وقع بين أوروبا والإسلام. فإن أوروبا قد استفادت كثيراً من الجهود العلمية والفلسفية التي جاءت بها الدولة المباسية في المصور الوسطى. ولا أحسب أنني أتهم بالمغالاة إذ قلت إن المسلمين هم الذين فتحوا عيون أوروبا على الحضارة والفلسفة اليونانية، وذلك عن طريق نقل آثار أفلاطون وأرسططاليس إلى المربية وتعليقهم على هذه الآثار. ولم يمنع الدين المسيحي ولا الدين الإسلامي أن تستفيد أوروبا من هذا الجهد الإسلامي.

ودليل آخر على أن هذه فكرة مخطئة هو أن كلاً من المسيحية والإسلام إنما يشيران إلى نفس الآراء في ما يختص بالكون. فقصة التكوين، والخير والشر، والخلق كله، والأوامر والنواهي، واحدة في كلا الدينين، فليس بين الدينين من خلاف إلا في فكرة الوجدانية في الإسلام وموقفه من فكرة التثليث، وفي بعض الوقائع التاريخية التي تتعلق بأنباء النبيين. غير أن هذه الخلافات – التي لا تمس الجوهر – ليس من شأنها أن تدم

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

التفاهم. أو تقيم خلافاً كالذي دفع إلى الحروب الصليبية قديماً، والذي لا يزال حياً الآن بين أوروبا والمسلمين.

ومن ناحية أخرى فإن أوروبا تدعي أنها تطورت وأنها خرجت من الدائرة اللاهوتية ودائرة ما وراء المادة إلى الحالة الوضعية. وهذه الحالة التي تدعي أوروبا اصطفاها لا تساعد على جعل الدين أساساً لصلوات الاجتماع، في حين أن المصالح الاقتصادية استطاعت أن تشعل نيران أكبر حرب عرفتها الإنسانية حتى اليوم.

ومعنى هذا أن تلك الحالة الوضعية لا تبيح أن يكون الدين - وفقاً لمنطقها ذاته - سبباً في استبعاد التفاهم بين شعبين، بل بين أوروبا والمسلمين.

وقد يقول أحد الأوروبيين: حقاً إن الدين ليس في ذاته سبباً في عدم التفاهم هذا، ولكن هذا لا يمنع أن يكون تعصب المسلمين هو السبب في تلك الحالة التي يتبادل فيها الأوروبيون والمسلمون المدا. وهذا الكلام ليس أكثر اعتماداً عن الصواب مما قدمنا. فلست أتردد في أن أقول إنه إذا كان هناك تعصب فعلاً، فإن هذا التعصب ليس من بضاعة المسلمين، ولست ألقى هذا القول جزافاً، فإن الحقائق كلها تؤيد ما أذهب إليه. فلما جاء «بونابرت» إلى مصر في سنة 1798، لجأ إلى العلماء لكي يمدوه بالمساعدة في إدارة البلاد. وإذا كانت غزوة «بونابرت» لم تنجح في مصر بمد رحيله عنها، فذلك لأن القائمين عليها إذ ذاك

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

أغفلوا الشعور الوطني متأثرين بالتمصب الديني. ولو قد كان التمصب لدى المصريين على هذه الصورة التي يتخيلها الأوروبيون لكانت. تكفي تصريحات «نابليون» و«كليبر» و«مينو». وقد كان العلماء الدينيون في مصر مهم. كانت تكفي هذه التصريحات لكسب شعور البلد. ولكنهم فشلوا لأن النزعة الوطنية كانت أقوى من التمصب الديني عند الأهليين ولذلك لم يستطع لا نابليون ولا من خلفه على الحملة الفرنسية أن يكسبوا المصريين في صفهم.

وحقيقه أخرى تثبت بوضوح أن التمصب الديني منعدم تماماً عند المسلمين. ذلك أن أغلبية البلاد الإسلامية - إبان الحرب الكبرى - انضمت إلى صف الحلفاء، مع أن تركيا وحدها هي التي انضمت إلى ألمانيا. ولقد فشلت الدعاية القوية التي بذلتها تركيا لإنعاش هذا التمصب الديني المزعوم لكي تضم البلاد الإسلامية إلى جانبها، والسبب في هذا أن البلاد الإسلامية كانت إذ ذاك لا يدفعها إلا الشعور الوطني ومصالحها المستقبلية.

وحقيقة ثالثة تثبت أن هذا التمصب لا وجود له، هي تركيا الحالية. فقد اتجهت بكل جهودها إلى أوروبا لكي تقتبس منها ما يمدد إليها شبابها. ولست في مقام الحكم على مدى نجاحها في هذا السبيل، ولكن كونها وبقائها إلى الآن بلداً إسلامياً، قد أظهرها بمسلكها هذا أنه لا الدين ولا التمصب يمكن أن يكون سبباً لعدم التفاهم بين أوروبا والمسلمين.

ولكي نتعرف على هذه الأسباب يجدر بنا أن نستعيد جانباً

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

من التاريخ. فبعد وفاة النبي العربي - صلى الله عليه وسلم - بثلاثين سنة، أنشأ المسلمون إمبراطورية إسلامية واسعة النطاق. ولم تكن فكرة الاستعمار هي التي تدفع المسلمين للفتوح لينشروا ما آمنوا به في كل الأنحاء وليمحووا آثار الوثنية. وبعد ذلك بمائة عام قام المسلمون بفتوحات أخرى. وكان نفس هذا الباعث هو الذي يدفع المسلمين، ولكن بحرارة أقل، وحماس ديني أقل. فقد كانت فكرة الفتوح للفتوح في هذه الأونة، وفكرة الاستعمار حياً في الاستعمار، تساوي تماماً فكرة نشر الدين الجديد.

وبعد ذلك بخمسين سنة قام المسلمون بفتوحات أخرى. ولكن في هذه المرة لم يكن الباعث الديني هو الذي يحمل المسلمين على الفتوح، بل كانت فكرة الفتوح للفتوح، والسبب في هذا واضح، فقد كان الإسلام منتصراً كل الانتصار فلم يعد في حاجة إلى زيادة التوسع بقدر ما كان المسلمون أنفسهم في حاجة إلى غزو بلاد جديدة تدفعهم فكرة الاستعمار. وهذا التطور من فكرة نشر الدين أيماناً بوجوب نشره، إلى فكرة الاستعمار للاستعمار يعتبره الكثيرون السبب في قيام الحروب الصليبية. ومع ذلك فإن المؤرخين يذهبون إلى القول بأن الحروب الصليبية هي حروب سياسية بقدر ما هي حروب دينية، وأن الملوك الذين اشتركوا فيها لم يلجأوا إلى الشموخ الديني عند رعاياهم إلا لاستثارتهم وزيادة حماسهم وزيادة القوة المعنوية بين صفوفهم.

ومرت بعد ذلك قرون حتى انتهى الأمر باستيلاء الأتراك

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

على «إستانبول» في القرن الخامس عشر. وكان أثر هذه الحملة الآسيوية التي قام بها الأتراك في البلاد الإسلامية عكس أثرها في أوروبا. فقد شمرت شعوب أوروبا بهزة أيقظتها من سبات القرون الوسطى. وأما في البلاد الإسلامية فإن الأمر يختلف عن ذلك. فلم يكن بين الشعب الغازي والمسلمين أية علاقة تجمعهم جميعاً إلا علاقة الدين، لا علاقة الجنس، ولا علاقة اللغة، ولا علاقة التفكير. وأما الدين فلم يكن في نظر الأتراك إلا راية للحرب تتخذ وسيلة لمقاب كل بلد إسلامي لا يخضع لهم. وقد ترتب على هذا أن العالم الإسلامي راح في سبات عميق عند غزو «إستانبول» في حين أن أوروبا بدأت تستيقظ على دوي هذا الغزو وتتجه إلى حياتين ذهنية وروحية جديدتين.

بيد أن هذه النهضة الأوروبية لا تشابه تلك النهضة الروحية التي كانت شبه جزيرة العرب مسرحاً لها قبل ثمانية قرون تحت تأثير ما بث به محمد من الحق.

ولمست النهضة الدينية التي أظهرت «لوثر» إذ ذاك إلا خلافاً على تفاصيل الدين لا على جوهره، وذلك فإنه ليس يمكن أن تقارن هذه النهضة بما كان من نهضة الإسلام الأول، ولذلك كانت ثورة «لوثر» أقل من أن تؤثر في أوروبا كله، وأن تكن قد عمدت الطريق لمذهب «ديكارت» وللفلسفة الوضعية بعد ذلك. وبينما كان هذا التطور العقلي يهز أوروبا، كان مبدأ القوميات يتأكد في الأذهان تمهيداً لأن يكون قاعدة للحياة السياسية

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

المستقبل. ومن الحق أن نقول إن هذا المبدأ كان دائماً موجوداً في أوروبا، ولكنه لم يكن بمثل القوة التي ظهر بها بعد عصر النهضة وإحياء العلوم. وقد اقتضى هذا المبدأ من الدول الأوروبية أن توسع من نفوذها خارج أوروبا تبادياً لقيام حرب بينها في داخلها. وهكذا بدأت السياسة الاستعمارية تشق طريقها في أوروبا. تلك السياسة التي تكون السبب الحقيقي لعدم التفاهم القائم بين أوروبا والإسلام.

ولنشرح هذا قليلاً: ففي غضون القرن السابع عشر نصح الفيلسوف الكبير «ليبتز» لويس السادس عشر. أن يحضر قناة تصل ما بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، ولم يكن غرض «ليبتز» بالطبيعة من هذه النصيحة نشر فلسفته. بل كان الفرض الذي يرمي إليه هو فتح الطريق أمام التوسع الأوروبي في أفريقيا وآسيا. فقد كان لإسبانيا مستعمراتها في أمريكا وكانت تدر عليها الذهب. فكان من الضروري أن يكون لغيرها من الدول مستعمرات كذلك. وفي نفس الوقت انتهت المفاوضات التي كانت جارية مع تركيا إذ ذاك بمنح المسيحيين الذين يقيمون في البلاد الإسلامية امتيازات من شأنها أن تسهل لهم الإقامة والانجاز. ولم يكن أحد يفكر عندئذ في إدخال المدنية إلى الشرق. ذلك الادعاء المبقر الجميل الذي لجأت إليه الدول الأوروبية لتبرير الاستعمار بعد ذلك بقرنين. هذا وقد منح الباب المالي امتيازات للدول المختلفة للوصول في النهاية إلى شرط أول

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

الدول بالمراعاة. وهكذا رسخت التجارة الأوروبية في الشرق توطئة للحضارة الاستعمارية.

وقع بعد ذلك حدث – لست أدري أكان وقوعه لحسن الحظ أم لسوءه – ساعد على رسوخ هذه الحضارة الاستعمارية، ذلك هو الصناعة الكبرى. فلكي تجد الدول الأوروبية الأسواق اللازمة لاستهلاك ما تخرجه صناعتها الكبيرة من منتجات. أخذت هذه البلاد تتنافس في غزو المستعمرات. وكانت الفكرة في هذا إيجاد أسواق جديدة للمنتجات الصناعية والبحث عن حقول جديدة كذلك لإنتاج المواد الخام.

وكانت هذه الروح الاستعمارية في إبان سطوتها عندما انفجرت الثورة الفرنسية فهزت أوروبا من أقصاها إلى أقصاها بما أشاعته من فكر عن الحرية والأخاء والمساواة. وبما جاهدت في سبيله من توطيد لحق الشعب في حكم نفسه، ومن وضع لقواعد الديمقراطية الحالية.

ولكن كيف يمكن أن نوفق بين هاتين الفكرتين المتناقضتين: الحرية، والاستعمار؟ من المسير حقاً أن نفهم هاتين الفكرتين معاً، ولكن أصحاب الثورة الفرنسية لم يترددوا لحظة أمام هذه الصعوبة في التوفيق بين الفكرتين، فلقد قالوا إن المبادئ الجديدة التي جاءت بها الثورة الفرنسية يجب أن تظل محصورة ضمن أوروبا فلا تتعداها. وعندما جاء «نابليون» إلى مصر، لم يكن مدفوعاً إلى اجتياز البحر الأبيض يدافع الحرية، ولكنه كان

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

مدفوعاً بمقاومة وضع اليد الإنجليزية على مصر توطئة لمرقلة النفوذ البريطاني في الهند. إذاً فقد كانت فكرة الاستعمار، والاستعمار فقط، هي التي تحكم نشاط كل من إنجلترا وفرنسا في مصر. ولذلك فإن هذه المبادئ التي نادى بها الثورة الفرنسية، مبادئ الحرية والمساواة والإخاء لم تقف قط عقبة في سبيل تقدم أوروبا في الشرق وفي البلاد الإسلامية.

بيد أنه من الواجب - إلى جانب هذا الدافع الحقيقي - أن تبحث أوروبا عن علة أخرى تبرر بها الغزو الأوروبي للبلاد الشرقية. ولم يكن البحث عن هذه العلة بالشيء المسير. فإن هذه الشعوب المستعمرة شعوب أولية ومن الحق على أوروبا أن تعلم هذه الشعوب، وأن ترفعها إلى مستوى الحضارة الجديدة، وأن تكونها وتدرّبها بحيث تستطيع أن تحكم نفسها وفقاً للآراء الديمقراطية. كانت تلك هي العلة التي استترت أوروبا رداءها، وإنها لعله عبقرية حقاً. فلو كانت هذه المواطف صادقة، ولو كانت أوروبا مخلصه في ما تريد أن توطد قدمها من أجله في الشرق، لكان واجباً على هذه الشعوب الشرقية أن تتبادل التهنة على روح العطف على الآخرين التي تبدو من أوروبا إذ ذاك.

ولقد أمنت هذه الشعوب الشرقية بسذاجة تامة بهذا الإخلاص الذي أبدته أوروبا ورغبت بكل قواها أن تقتبس الحضارة والثقافة الأوروبية. ولكنها سرعان ما تبين أن لا مواءمة هناك بين هذه الجهود التي تبذلها وبين الأغراض

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

الحقيقة لهؤلاء الأسياد الذين كانوا يحكمون أقدار هذه الشعوب عندئذ. فالحضارة الأوروبية إنما تقوم في الواقع على العلم وعلى رأس المال الصناعي وأرادت الشعوب الشرقية أن تستعيد القرون الثلاثة التي سبقتها بها أوروبا، فحسبت أن مبادئ الإخاء والمساواة من شأنها أن تملي على أوروبا واجب الأخذ بيد هذه الشعوب لكي تحصل على نصيبها من العلوم ومن رأس المال المستغل في الصناعة، كما كان الحال مع المسيحيين الأول والمسلمين الأول الذين حاولوا بكل ما يملكون من جهد أن ينشروا ما جاءت به المسيحية والإسلام؛ ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. ومنذ أوائل القرن التاسع عشر رغب المصريون اصطناع العلوم والصناعات في بلادهم، وساعدتهم الظروف على موادة أملهم هذا، ثم نما هذا الأمل بمد الاحتلال البريطاني، فقد كان من حق المصريين أن يمتقدوا أن إنجلترا سوف تصدر لمصر - في ما تصدر من مصنوعات منتجاتنا القطنية - حضارتها الجديدة كذلك. فانتظر المصريون أن يروا إنشاء الجامعات، ونشر التعليم العام، وإنهاض الصناعات الكبيرة. ولكن هذا الأمل ما لبث أن خبا، فقد اتهمت البلد المفزوع بأنه بلد بعيد عن الحضارة، وأن هذا ناشئ عن الدين الإسلامي.

ولقد جاهر «اللورد كرومر» ممثل بريطانيا المظلم في مصر - في تقاريره الرسمية - أن الغرض من التعليم يجب ألا يتمدى إخراج موظفين مطيعين يعملون في الإدارة. ولم يكن يهم إنجلترا أن تتقدم مصر في ناحية من النواحي إلا في إنتاج القطن

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

والمواد الخام التي يحتاج إليها الاستهلاك البريطاني وتحتاج إليها الصناعة البريطانية، ويجب أن نعترف أن إنجلترا بذلت مجهودات هائلة لتحسين إنتاج القطن وغيره من المواد الخام، غير أن أي طلب ينصب على إنشاء صناعة كيفما كانت يوظف فيها رأس المال المصري، كل طلب من هذا الطراز كان يقابل بالرفض البات، أو بوضع عقبات - لا يمكن التغلب عليها - في طريقه. وما حدث في مصر حدث في غيرها من البلاد المستعمرة. ولم يكن التنافس الاستعماري المسرف غير الدافع لفلاديم الثاني على أن يقول إن مستقبل ألمانيا ليس إلا في البحر، ولم يكن إلا الدافع إلى إعلان السلام المسلح، الذي أملى على أوروبا أن تنفق مئات الملايين في التسليح، ولم يكن إلا الباعث على نشوب الحرب العظيم في سنة 1914. وسياسة كهذه لا يمكن أن تلمئن إلى غدها، ولا يمكن أن تضع ثقتها في شيء، ولذلك لم يكن لأوروبا بطبيعة الحال ثقة في مستعمراتها، ولم يكن للبلاد المستعمرة - باب أول - ثقة في نويا أوروبا، ومن أجل هذا كان عسيراً أن يقوم تفاهم بين أوروبا والإسلام.

ولم يكن للشعوب المستعمرة ثقة في أوروبا، ليس فقط لأن أوروبا كانت تاملها باعتبارها شموياً غير متحضرة، ولكن لأنها كانت تطبق في مستعمراتها الآراء التي حكمت عليها - داخل بلادها الأوروبية - بأنها بالغة الضرر. فقد قررت فرنسا مثلاً فصل الكنيسة عن الدولة داخل بلادها، وقررت كذلك تجريد

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

رجال الكنيسة من أموالهم، وأعلنت بعد ذلك الحالة المدنية. ومع كل هذا فإن الحكومة الفرنسية المدنية تعطي أموالاً طائلة للبعثات الدينية التي تدعي أنها تنشر المسيحية.

ومن الحق علينا أن نعتزف بأن هذه البعثات الدينية – سواء منها الفرنسية والأمريكية والإنجليزية وغيرها – قد قامت بأعمال إنسانية في الشرق، فقد أسست هذه البعثات معاهد علمية، ومستشفيات ومؤسسات خيرية. ولكن البعثات المدنية قامت كذلك بأعمال كثيرة من هذا الطراز. والواقع أننا لا نستطيع أن نقصر هذا التناقض الظاهر في مسلك الحكومات الأوروبية، إذ إن هذه الحكومات تطارد البعثات الدينية من بلادها لكي تحميها في الخارج، فإن لم يكن الباعث على هذه الروح السياسية الاستعمارية لما عاملت البلاد المستعمرة غيرها من البلاد وفق المبادئ التي قامت الثورات ضدها عند الأمم الأوروبية.

ومن العوامل التي ساعدت على عدم قيام تفاهم بين أوروبا والإسلام، هجرة العناصر غير المرغوب فيها في البلاد الأوروبية إلى البلاد المستعمرة بحثاً عن الثروة دون إقامة أدنى وزن للوسائل والأساليب التي يستخدمونها في ما هم بسبيله من غرض. ويكفي أن يقرأ الإنسان إلى أي درك تنحط هذه الوسائل والأساليب في أغلب الأحيان، ولكي يعرف أن الربا قد يكون أقرب هذه الوسائل إلى الخير والفضيلة.

وعندما خاب أمل الشعوب الإسلامية – كما وضعنا ذلك –

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

في نيات أوروبا، أحست هذه الشعوب، قبل الحرب الكبرى بـعدة سنين، أن من واجبها ألا تعتمد إلا على مجهودها الخاص، ولم يكن أمل هذه الشعوب الإسلامية كبيراً في النجاح؟ ولكن يجب أن نعترف إلى جانب هذه الحقيقة التي قررناها، أن ضعف الأمل في النجاح لم يقف عائقاً دون هذه الشعوب وما تبتغي من الأغراض، بل لم يمنعهما هذا من الاستزادة من النشاط مع الإيمان دائماً بالعدالة الإلهية العالمة.

ولشد ما كانت دهشة هذه الشعوب عندما اندلعت أول شرارة للحرب العظمى في الثاني من أغسطس سنة 1914: ففي غضون المدة الطويلة التي استمرت فيها الحرب كانت دعاية الحلفاء التي تنادي بأنها تحارب الروح العسكرية الألمانية لكي تنصر الحرية، والوعود التي كان يبذلها هؤلاء للشعوب المستعمرة، والمبادئ التي جاءت بها الهدنة، وخاصة الاعتراف بحق الشعوب في تقرير مصيرها – كل هذه أمور كان من شأنها أن تفتح أمام الشعوب المسلمة أفقاً جديدة وبالأخص أمام الشعوب التي انتصرت لقضية الحلفاء.

وإذ انتهت الحرب، ووقعت المعاهدات، أخذت آمال هذه الشعوب تذوي!! أكانت إذاً خدعة من أوروبا عندما قام من ينادون بحق تقرير المصير؟ أكان إذاً خدعة ذلك النضال ضد الروح العسكرية الألمانية؟ وهل بقيت أوروبا ما بعد الحرب إزاء الشعوب الإسلامية هي أوروبا ما قبل الحرب؟ لقد كانت خيبة

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

الأمل في ذلك كله أكبر من الآمال التي عقدتها هذه الشعوب على أوروبا.

بيد أن شيئاً لا يمنع من قيام تفاهم متبادل بين أوروبا والإسلام إذا وُجد الرجال ذوو المزايا من الناحيتين، الذين يأخذون على عاتقهم القيام بهذا العبء الضخم.

ولكن أين يوجد هؤلاء الرجال؟ أبتين الكتاب والفلاسفة ورجال العلوم؟ أعتقد أن من الواجب عليّ أن أقول - دون أن أخدش جميع من ذكرت - إن هؤلاء كلهم يتحملون نصيباً كبيراً من المسؤولية عن قيام عدم التفاهم الحالي بين أوروبا والإسلام، إذ إن الأغلبية منهم تنسى أن لهم رسالة إنسانية، رسالة لا تعرف حدود الدول السياسية، فهؤلاء الكتاب والفلاسفة وأصحاب العلوم يضمنون نبوغهم وعبقريتهم في خدمة سياسة بلادهم القومية؛ وليس من ينكر أن هذا واجب عليهم إذا تعرضت أوطانهم للأخطار. ولكن هذه الأخطار قليلة الحدوث في الغالب، ومن واجب رجال السياسة أن يسيروا أمور الوطن وقت السلم تسييراً يكون من نتائجه الابتعاد عما يوقد نيران الحرب، ففي هذه الأوقات، من الحق على أصحاب العلوم الإنسانية من الكتاب وغيرهم من رجال الفكر، أن يسخرُوا جهودهم لخدمة قضية الحرية والتعاون بين الشعوب.

وحرية الشعوب التي نعنيها شبيهة بحرية الأفراد. يحترمها الجميع ويمتدح بها الجميع، دون نظر لثرواتهم أو لقواهم

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

المادية، وتعاون الشعوب الذي نمنيه تعاون قائم على القاعدة السابقة بين الأمم. وحسبنا بهذه وسيلة للتفاهم المرموق.

ولكن هل يمكن أن ينجح الإنسان في دفع رجال الفكر في العالم إلى طريق كهذا الطريق؟ تلك هي المشكلة، ذلك أن المصالح المادية - لسوء الحظ - من القوة بحيث لا تجعله محلاً للأمل المريض. فهذه المصالح حتى الآن هي التي تدير النشاط في العالم، بل إنها تدير حياته الروحية والخلقية. غير أننا لا يجوز أن نياس. فإن كثيرين يمتقدون أننا الآن في سبيل بحث أكبر من البحث الذي رآته أوروبا في القرن السادس عشر في عصر النهضة وإحياء العلوم، وأن هذا البحث لن يقتصر على أوروبا، بل إنه سوف يشمل دول العالم جميعاً. وسيكون هذا البحث نتيجة طبيعية لهذه الحرب الاقتصادية المستمرة بين الشعوب ليس في أوروبا فحسب، ولكن في آسيا وأمريكا كذلك. فلنؤمل إذاً في أن يقترب موعد حرية الشعوب والتعاون بينها لسعادة الجميع ورفاهة الجميع.

ويومذاك، لن يوجد عدم التفاهم بين أوروبا والإسلام، بل سيوجد تفاهم عالمي للوصول إلى الحقائق الخلقية المالية ولتوطيد السلام بإقامة الحياة الخلقية على البصيرة الروحية والحياة الاقتصادية على الحياة الخلقية.

مختارات

من النصوص الروائية

«أديب»

طه حسين (1935)

طه حسين (15 نوفمبر 1889 – 1973) أديب وناقد وتربوي وتنويري مصري كبير، لُقّب بعميد الأدب العربي. نشر عدداً من الروايات العربية، وله كتاب سجل فيه سيرته الذاتية تحت عنوان «الأيام» نشره عام 1929. يُعتبر من أبرز الشخصيات في الحركة العربية الأدبية الحديثة ومن أبرز دعاة التنوير في العالم العربي.

دخل طه سنة 1902 الأزهر لدراسة العلوم العربية والإسلامية، ونال شهادته التي تخوّله التخصص في الجامعة ولما فتحت الجامعة المصرية أبوابها سنة 1908 كان طه حسين أول المنتسبين إليها، فدرس العلوم المصرية، والحضارة الإسلامية، والتاريخ والجغرافيا، وعدداً من اللغات الشرقية كالعبرية والسريانية، وإن ظل يتردد خلال تلك الحقبة على حضور دروس الأزهر والمشاركة في ندواته اللغوية والإسلامية. دأب على هذا العمل حتى سنة 1914، وهي السنة التي نال فيها شهادة الدكتوراه، وكان موضوع رسالته هو: «ذكرى أبي الملاء»، ما أثار

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

ضجة في الأوساط الدينية المتزمتة، وفي العام نفسه أوفدته الجامعة المصرية إلى مونبيليه بفرنسا، لمتابعة التخصص والاستزادة من فروع المعرفة والعلوم المصرية، فدرس في جامعتها الفرنسية والأدب، وعلم النفس والتاريخ الحديث. بقي هناك حتى سنة 1915، سنة عودته إلى مصر، فأقام فيها حوالي ثلاثة أشهر أثار خلالها معارك وخصومات متعددة، محورها الكبير بين تدريس الأزهر وتدريس الجامعات الغربية، ما حدا بالمسؤولين إلى اتخاذ قرار بحرمانه من المنحة الممطرة له لتغطية نفقات دراسته في الخارج، لكن تدخل السلطان حسين كامل حال دون تطبيق هذا القرار، فعاد إلى فرنسا من جديد، لمتابعة التحصيل العلمي، ولكن في العاصمة باريس. فدرس في جامعتها علم الاجتماع والتاريخ اليوناني والروماني والتاريخ الحديث وأعد خلالها رسالة الدكتوراه الثانية وعنوانها: «الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون». كان ذلك سنة 1918، وفي غضون تلك الأعوام تزوج من سوزان بريسو الفرنسية السويسرية التي ساعدته على الاطلاع أكثر فأكثر بالفرنسية واللاتينية، فتمكن من الثقافة الغربية إلى حد بعيد. كان لهذه السيدة عظيم الأثر في حياته، فقامت له بدور القارئ وقرأت عليه الكثير من المراجع، وأمدته بالكتب التي تفتت كتابتها بطريقة بريلا حتى تساعد على القراءة بنفسه، كما كانت الزوجة والصديق الذي دفعه للتقدم دائماً، وقد أحبها طه حسين حباً جماً، ومما قاله فيها إنه «منذ أن سمع صوتها لم يعرف قلبه الألم».

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

وابان عودته إلى مصر سنة 1919 عُيِّن طه حسين أستاذاً للتاريخ اليوناني والروماني في الجامعة المصرية، وكانت جامعة أهلية، فلما أُلحقت بالدولة سنة 1925 عينته وزارة المعارف أستاذاً فيها للأدب العربي، فمميذاً لكلية الآداب في الجامعة نفسها، وذلك سنة 1928.

تسلم رئاسة تحرير «الجمهورية» إلى حين. نشر ست روايات من بينها «أديب» و«دعاء الكروان» وهي روايات كان لها أثر عند أدباء كثيرين منهم نجيب محفوظ. أهدته الأمم المتحدة جائزة حقوق الإنسان قبل وفاته في عام 1973.

أعماله:

- ◆ في الشمر الجاهلي.
- ◆ الأيام.
- ◆ دعاء الكروان.
- ◆ شجرة البؤس.
- ◆ الممذبون في الأرض.
- ◆ على هامش السيرة.
- ◆ حديث الأربعاء.
- ◆ من حديث الشعر والنثر.
- ◆ مستقبل الثقافة في مصر.

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

◆ أديب

◆ مرآة الإسلام

◆ الشيخان

◆ الوعد الحق

◆ جنة الشوك

◆ مع أبي العلاء في سجنه

◆ في تجديد ذكرى أبي العلاء

الرواية:

رواية «أديب» هي سيرة الكثيرين من المثقفين العرب في بداية القرن العشرين الذين انبهروا كثيراً بحضارة الغرب وانشاقوا وراء نزواتهم، والذين نظروا للغرب على أنه رمز للحرية والعلم والتقدم والإشباع غير المسؤول لكل المكبوتات الدفينة، وهذا ما عبّر عنه عدد من الروايات العربية كرواية «الحي اللاتيني» لسهيل إدريس، و«موسم الهجرة للشمال» للطيب صالح، و«عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم، و«قنديل أم هاشم» ليحيى حقي. ومن ثم، تصوّر هذه الرواية الصراع الحضاري بين الشرق والغرب، والتقابل بين عالم الكبت وعالم التحرر، وبين عالم التخلف وعالم التقدم، وبين الانحطاط والرفق الحضاري. لذلك كان ينظر أديب إلى مصر وزوجته حميدة بنظرة تفاير نظرته

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

إلى فرنفد وفرنسا. إذاً، هناك جدلية وتفاوت بين هذين العالمين حتى إن أديب لم يرد العودة إلى بلده لما قامت الحرب على فرنسا، وكان يتمنى الدفاع عن هذا البلد في وجه النازية؛ لأن هذا البلد يقترن في ذاكرته بالحب والحرية والإشباع الجنسي، أما بلده فيقترن بالكبت والحرمان وصعوبة تحمل المسؤولية.

في النهاية يخسر أديب زوجته حميدة التي طلقها وتركها تنتظره على أمل أن يستكمل دراسته، كما يترك والديه يتمذبان ويشتاقان إليه كثيراً وهو لا يكن لهما أي شيء من الطاعة والحب والاحترام، بعد أن أودت به الفربة إلى عالم الجنون.



يونيو في...

ليتني لم أسمع لك أيها الصديق، فقد كنت أؤثر أن أرتحل إلى فرنسا دون أن أذهب إلى ريفنا الحزين لأرى أبوي وأسرتي ولأرى قريتنا، ولأملأ نفسي من هذه المشاهد الجميلة التي نشأت فيها، وكنت أرى أنني سأجد في هذه الرحلة القصيرة إلى الريف ألماً يحسن أن أتجنبها، وأن أستقبل الحياة الجديدة بنفس مشرقة وقلب لا يجد حزناً، ولا يحس لوعة، ولا يأسى على شيء، وأنا أكره الوداع وأرى في السفر - كما يقول بعض الشعراء الفرنج - نوعاً من الموت، ولا أحب أن ألتقي الموت مهما يكن

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

يسيراً على علم به، وانتظار له، وإشفاق منه. وإنما أوتر أن يفاجئني مفاجأة، وأن يختطفني اختطافاً، وأن أخرج من الحياة جاهلاً بخروحي منها كما أقبلت على الحياة جاهلاً بإقبالي عليها.

لقد كنت شديد التردد في الذهاب إلى الريف، أحس من نفسي ضعفاً شديداً على احتمال هذا الوداع المؤلم، وداع هذين الشيخين اللذين لم يكونا يحتملان إقامتي في القاهرة بميداً عنهما إلا كارهين، فكيف بهما إذا علما أنني لن أقيم في القاهرة. ولن تكون بينهما وبينني ساعات، ولكني سأعبر البحر المريض إلى بلاد نائية لا تُحسب المسافة بيننا وبينها بالساعات، وإنما تحسب بالأيام. لقد كانا يكرهان أشد الكره إقامتي في القاهرة، هذه المدينة التي لا يتكلم أهلها كما نتكلم، ولا يمش أهلها كما نعيش، والتي يملؤها الفساد ويملؤها الصلاح في وقت واحد، والتي يجري في شوارعها الترام، والتي يكثر بين أهلها المحتالون والسراق، والتي يخرج الرجل من بيته فيها فلمله لا يعود إليه. فكيف بهما حين يعلمان أنني سأقيم في ذلك البلد البعيد الغريب الذي لا صلة بينه وبيننا في لون من ألوان حياتنا المعروفة، والذي لا يعلمان من أمره إلا أنه بلد الفتنة والعبث وموطن اللهو والمجون، أليس إليه يقصد السراة وكبار الأغنياء والمترفين من سادات الريف إذا اجتمعت لهم المقادير الضخمة

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

من الذهب؟ فلا يكادون يقضون فيه الصيف حتى يعودوا وقد صفرت أيديهم من كل شيء، وهم يقصون من أنبائه وأحاديث العبث والفسوق فيه ما تشيب له الأطفال، وترتاع له نفوس الرجال. لقد كنت أقدر هذا كله حين كنت تجادلني في زيارة الريف قبل أن أبحر الأرض. ولكنك لا زلت تلح علي وتذكرني وتشير في نفسي العواطف والذكريات. حتى استحيت منك ومن أبوي ومن الناس ومن نفسي أيضاً. ورأيت أنني لا أستطيع أن أفارق مصر. دون أن أرى هذين الشيخين. فمن يدري! لملي أذهب فلا أعود، ومن يدري! لملي أعود فلا ألقاهما.

هنالك رحلت إلى الريف وليتني لم أفضل. فلم أكن أظن أنني سألقى في هذا الريف ما لقيت من حزن لاذع وألم ممض وبأس لا صبر معه ولا احتمال له.

لا أصف لك جزع أمي ولا سخط أبي، فحسبك أن تعلم أن أمي لا تصيب الطعام إلا ما يقيم الأود، وهي لا تصيبه إلا بعد إلحاح متصل. وأنها لا تذوق النوم إلا غراراً، وأنها لا تمسك الدموع، وإنما ترسلها إرسالاً حتى تنقطع، وأنها تعتقد اعتقاد يقين أنها قد فقدت ابنها الذي كانت تحبه وتؤثره وتدخره للحوادث والنائبات. وهي تمقت الجامعة وأيام الجامعة والذين فكروا في الجامعة. وهي تمقت العلم والذين يحبون العلم ويدعون إليه، وهي تلمن المدارس وهذا التمدن الذي علم مصر فتح المدارس، وهي تأسف أشد الأسف وتقدم أقسى الندم كلما ذكرت

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

ذلك اليوم الذي أراد فيه أبي أن يقلد أباك، فأخرجني من الكتاب كما أخرج أبوك من أخرج من إخوتك، وأرسلني معهم إلى المدرسة الابتدائية في عاصمة الإقليم، هنالك حيث طرحت زي الريف واتخذت هذا الزي الأوروبي، ووضعت على رأسي هذا الغطاء البفيض.

ولست أخفي عليك أنها تنال أسرتك بكثير من لاذع القول، فهي التي ألقى في روعنا أن من الخير أن يتعلم الأطفال في هذه المدارس، وأن يلبسوا الطربوش، وأن يلوا ألسنتهم بالطرانة الأجنبية، وأن يصبحوا موظفين. وهي لا تفهم كيف استطعنا أن نعدل بما تعودت أسرتنا منذ الزمن البعيد من الاختلاف إلى الأزهر حتى نحصل شيئاً من علوم الدين ثم نمود إلى القرية حيث الجد والعمل، وحيث الفنى والثروة، وحيث الجاه وبعد الصيت.

لا أطيل عليك، فأمي تائرة إذا أصبحت، تائرة إذا أضحت، تائرة إذا أقبيل المساء، تائرة إذا جنها الليل، تائرة حتى امتلأ البيت حزناً وسخطاً وبكاء. فأما أبي فمتنكر متمر، ينذر فيلح في النذير، ويتلطف فيلح في التلطف، فإذا أعياه النذير ولم يسمده الاستعطاف، خرج عن طوره فأسخط من حوله جميعاً، وجعل حياتهم لا تطاق، وأقسم جهد أيمانه ليقطن ما بينه وبينني من سبب وليميشن منذ الآن كأنني لم أكن له ابناً. ولو أنني استممت لنفسي أيها الصديق لما أقمت في هذا الجحيم إلا يوماً أو يومين، ولأسرعت إلى القاهرة فانتظرت فيها معك ومع

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

أصدقائنا هذا اليوم السعيد الذي تطلع فيه السفينة بنا إلى هذا العالم الجديد الذي ملك عليّ نفسي كلها وقلبي كله.

ولكن كيف أستطيع أن أردع هذين الشيخين في ما هما فيه، ولما أبذل ما أقدر عليه من الجهد لأهون عليهما الأمر بمض الشيء. ولأردّهما إلى بعض الطمأنينة. ولأرحل عنهما وهما راضيان غير ساخطين. واني لأجد في ذلك ما وسعني الجد، وأحتال لذلك ما واتتني الحيلة، وأستمين على ذلك ببعض من له حظ من فهم، ونصيب من ذكاء وعلم بحياتنا وما تقتضيه من تطور. وبما بين حياتنا في هذا العصر وحياتنا قبل أن نولد أو حين كنا أطفالاً، وما أظن أنني سأبلغ وحدي أو بمعمونة هؤلاء الناس شيئاً، فأمي مستيقنة بآني إذا سافرت فقد فقدتني، وأبي مقتنع بآني إذ سافرت فقد قطعت بينه وبينني كل سبب.

في ذات يوم أصبحت ضيق الصدر كئيب النفس، شديد الحرج، ممتلئاً بهذا المعجز الموثس عن رضاء هذين الشيخين، كارهاً أشد الكره للدار والقرية ومن فيهما، فخرجت أهيم في الريف ألتمس راحة النفس في تعب الجسم، ولست أزعم أنني خرجت أريد وجهة بعينها، أو أسمى إلى غاية معروفة، وإنما هو المشي، والإبعاد فيه، والخلوة إلى النفس، والفرار من لوم اللائمين، وعذل العاذلين، والحاح الملحّين، واني لأمضي أمامي لا أحفل بشيء ولا أقف عند شيء، وأكثر الظن أن كثيراً من الناس الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم قد لقوني فحيوني، وما

أشك في أنهم قد أنكروني لأنني لم أسمع منهم، ولم أرد عليهم تحييتهم، ولعل كثيراً منهم قد تحدث إلى نفسه بأن هذا أول الشر، وبإدارة الفساد، وأنه ليعرض عنا، ويكبر علينا، ولم يذهب إلى بلاد الفرنج بمد، فكيف به إذا ذهب إليها وعاد منها.

والله يشهد ما رأيتهم ولا سمعتهم، ولا أحسست مكانهم مني، إنما كنت مشغولاً بنفسي عنهم وعن كل شيء. وإنك لتعلم أنني كثيراً ما حدثتك عن كلني بالخروج إلى الريف، والترؤس في الحقول أثناء هذا الفصل من العام، حين يكون الحصاد، وحين يشتد النشاط، وحين تنتشر في ريفنا هؤلاء الفتيات الفقيرات الحسان متبذلات بحكم الفقر، يطوفن بالحقول ويلتمسن أقواتهن في التقاط ما يستطعن من الحب. إنك لتعلم كلني بالخروج في هذا الفصل، وأني أجد لذة حارة حادة في الاستمتاع بهذا الجمال الطبيعي الذي تسبغه الحياة الماملة الجادة على أهل الريف حين يخرجون من أطوار الحمود والجمود، ويفنون في طبيعتهم هذه، ويصبحون وكأنهم أدوات للعمل والإنتاج، لهم جد الأداة وصدقها واستقامتها وصبرها وإعراضها عن الشكوى، وبعدها عن الملل والسأم. فما رأيك في أن هذا الجمال الذي يفتنني ويملك عليّ قلبي ويحملني على الرحلة إلى الريف إذا كان هذا الفصل من كل عام، لم يصل إلى قلبي، ولم ينته إلى نفسي في هذا اليوم. فلم أقف عند الأجران ولم أتحدث إلى المصيفات، ولم أداعب فتى ولا فتاة من هؤلاء الشباب الذين يملؤهم العمل نشاطاً ومرحاً ويقيناً وثقة وإيماناً. إنما مضيت

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

أمامي لا ألوي على شيء كأنما تدفمني قوة خفية إلى غاية خفية لم أتبينها ولم أتنبه لها، إلا فجأة حين رأيتني واقفاً جامداً، وحين أنكرت من نفسي هذا الوقوف وهذا الجمود ونظرت من حولي كأنني أفقت من نوم عميق، فما يروعني إلا أن أراني واقفاً استظل بشجرات التوت عند الإبراهيمية، هناك حيث مدخل المدينة لمن أقبل عليها من الغرب.

تبارك الله، فلم أكن إذاً قد خرجت من دارنا ضيقاً بها وبمن فيها، ولم أكن إذاً قد خرجت من قريتنا فراراً منها ومن أهلها، ولم أكن إذاً قد همت في الريف التماساً للخلوة إلى نفسي والراحة مما كنت أظنه من عناء، وإنما خرجت من الدار وخرجت من القرية ومضيت في الريف أمامي لأنني لم أكن أجد بدأً من أن أزور هذه المدينة التي أنفقت فيها أحسن أيام الصبي، ومن أن ألم بهذه الربوع التي ذقت فيها أطيب ما ذقت في الحياة من لذة قوية طاهرة بريئة من كل إثم.

إذاً فلتعد إلي نفسي النافرة، وليشب إلي قلبي الجامح، وليراجمني هذا العقل المضطرب المشرذم لأستجمع كل ما أستطيع أن أستجمعه من قوة الحس والعقل والشعور، لأستمتع بالحياة القوية الخصبة في هذه المدينة الحبيبة إلى نفسي، الكريمة على قلبي، ولأخذ منها بأعظم حظ ممكن من المتاع، أجعله زاداً لي في هذه الرحلة البعيدة التي أنا مقبل عليها، وأجعله ذخراً لي في هذه الإقامة الطويلة التي سأقيمها في ذلك البلد الغريب.

لأملأ إذا عيني مما سارى، ولأملأ إذا أذني مما سأسمع
ولأملأ إذا نفسي وقلبي مما ساجد، واني لأنظر فلا أكاد أرى إلا
الإبراهيمية تمتد أمامي ويسمى فيها الماء هادئاً حلو السمي. وإلا
هؤلاء الناس يسمون متفرقين، منهم المقبل من الغرب يحمل إلى
المدينة ما يبعث إليها الريف من المروض، ومنهم الذاهب إلى
الغرب يحمل إلى الريف ما تذيب المدينة فيه من التجارة.
بعضهم راجل، وبعضهم راكب، وقليل منهم يتحدث إلى رفيق،
وكثير منهم يفرق في الصمت كأنما يفكر في ما وراءه أو في ما
أمامه. وقليل منهم يتفنى كأنه يستمع بالفناء أو يعين به دابته
على احتمال السفر البعيد، وامرأة أو فتاة تأتي من حين إلى
حين، فتغمس جرتها في الماء حتى إذا امتلأت رفعتها إلى رأسها
ونهدت تسمى بها رشيقة رائحة الجمال غامضة في هذا الصمت
الذي يحجب نفوس النساء، ويستر ما يجول فيها من خواطر يود
الرجل لو يعرف منها بعض الشيء. واني لأمد سمعي فلا أسمع
إلا هذه الأصوات المختلفة التي تأتيني من هذه الحركات كلها،
وهذا اللحن الحلو المتصل المتشابه الذي يأتيني من هذه الأطيوار
وقد استقرت على الفصون. وكأنها وجدت لذة الراحة وأحست رقة
النسيم واستمتعت بخفض العيش بين هذه الأوراق النضرة، فهي
تتفنى بالجمال واللذة والأمل وحب الحياة. واني لأمد نفسي كلها
فلا أحس إلا حياة هادئة قوية نقية تأتيني من كل وجه، من
الحركات التي أرى، ومن الأصوات التي أسمع، ومن هذا النسيم
الخفيف الذي يمسنى مساً رقيقاً، فيرد إلي النشاط ويحيي في

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

نفسي الأمل. ويلقي عني كل ثقل. ويكاد يهبني جناحين، ويكاد يجعلني طائراً بين هذه الطير. ويكاد يرسل صوتي كما أرسل صوتها بالفناء. وأنا أقيم هنا في ظل شجرات التوت ساعة، أنعم فيها بالراحة وأستمتع فيها بالحياة وأذكرك أيها الصديق. ثم أتتني للمضي أمامي ولأنقض على المدينة من هذا المنحدر، فرحاً مرحاً نشيطاً طروباً. كما ينقض النسر. وهأنذا أمضي وأقدر ما سألقى من المناظر وأريد أن أبلغ أول القناة، قناتنا أتذكرها؟ أريد أن أبلغ أولها وأن أتبع مجراها أسيره على الشاطئ الجنوبي حتى إذا بلغت ذلك المنحدر الذي تعرفه، ودعتها لحظة وانحدرت إلى المدينة لأمر بهذه الأماكن التي كنا نألفها. بالدكان وبييت أم محمود وبييت زنوية. ثم أمضي حتى أبلغ شارعكم ولعلي أقف لحظة عند أوله فأتحدث إلى بمبة. أتذكر بمبة؟ تلك التي كانت تسرف في النوم وتسرف في الغطيط ويسمع الناس غطيطها في أكثر ساعات النهار، وفي كل ساعات الليل. إذا مروا أمام بيتها الصغير. من يدري! لعلني كنت أقف لحظة عند هذا البيت فأعيب بصاحبته وأسألها عن أصناف الجبن الذي تببمه وجه النهار. ثم ألهو لحظة بابنها الأبله ذي الرأس الغريب. أتذكره؟ لقد كنا نسميه أبا الرؤوس، إنه لا يتكلم ولا يسمع، لا يكاد يعقل ومن يدري، لعلني كنت ألهو به لحظة ثم ألقى في يده أو يد أمه بعض النقود.

ثم أمضي في شارعكم نحو الشمال فأمر بهذه البيوت التي كثيراً ما نعمت فيها بالجد والهزل، وأقف عند بيتكم في هذا

المنعطف الصغير أمام الباب حيث تتدلى أغصان هذه العنبات التي كثيراً ما لعبنا في ظلها وأكلنا من ثمرها واتخذنا بينها الحداثق والحقول. ومن يدري! لعلني أجلس على هذه المصطبة الصغيرة عن يمين الباب إذا خرجت من البيت وأذكرك أو أذكر إخوتك، فكثيراً ما جلسنا عليها وكثيراً ما لعبنا الطاب. ومن يدري! لعل الذكرى أن تملأ نفسي وقلبي، وأن تسميني نفسها وأن تخيل إلى أنها حاضرة لم تمض ولم تنقض أيامها، ولعلني أعتقد أنني قد أقبلك لأوركم، ولعلني أطرق الباب وأنتظر أن أسمع من ورائه صوتاً معروفاً مألوفاً يسأل عن الطارق. وأنتظر أن يفتح، وأن أرى من دونه شخصاً معروفاً مألوفاً يرحب بي ويدعوني إلى الدخول. ثم أنظر فأرى شخصاً لم أعرفه ولم ألفه يسألني من أنا وماذا أريد، فأثوب إلى نفسي وأستأنف رحلتي وقد مثلت فصلاً من حياتي الأولى ووجدت في التمثيل مثل ما كنت أجد من اللذة حين كانت الحياة حقيقة واقعة.

ثم أستأنف رحلتي فأمضي أمامي نحو الشمال حتى أبلغ هذا المنحدر الذي كنا ننحدر منه بعد أن كنا نقضي ساعات على شاطئ القناة أو في حديقة جرجس أفندي عن شمالنا، أو في حديقة المعلم عن يميننا. فأرقى في هذا المنحدر حتى ألقى القناة فأتابع شاطئها في طريقي إلى المدينة.

وكنت أقدر هذا كله وأقدم لنفسي المتاع بهذا كله وأنا أمضي أمامي ملتماً مخرج القناة من الإبراهيمية. ولكن ماذا أرى؟ وأين

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

أنا؟ وأين القناة؟ إنني لأنظر فإذا الإبراهيمية تمتد وتمتد ويجري فيها الماء هادئاً يحمل الحياة والخصب، ولكن شاطئها من ناحية المدينة قد اعتدل واستقام، فليس فيه عوج وليست فيه فرجة يخرج منها الماء. أين القناة؟ لقد كانت تخرج من نحو هذا المكان وكانت تمضي غير بعيدة ثم يقام عليها جسر صغير تمر عليه بعض القطارات. ثم تمضي غير بعيد ونمضي معها فنبلغ هذا المنحدر الذي كان ينتهي بنا إلى المدينة. أين القناة؟ إنني لا أراها ولا أجد لها أثراً، وإنما أرى شوارع وأرى دوراً تقوم في هذه الشوارع، وأرى معالم لم ألقها، ومناظر لم أرها من قبل. أتراني أخطأت المدينة؟ ومع ذلك فأنا أعرفها كما أعرف نفسي، وأستطيع أن أمشي فيها وأهتدي إلى مسالكها المختلفة دون أن أفتح عيني كما كنت تمشي فيها أنت أيها الصديق لا تحتاج إلى أن ترى ولا إلى من يهديك الطريق. أين القناة؟ لقد سلكت إلى المدينة الطريق التي سلكتها ألف مرة ومرة، فلست أشك في أنني قد بلفتها، وبلفتها هي دون غيرها من المدن، فماذا أصابها بعدنا، وأين ذهبت القناة؟ إنني لأريد أن أسأل فأجد حياء في نفسي من السؤال، ولكنني أطيل الوقوف وأطيل النظر عن يمين وشمال، وأطيل النظر من أمام ومن وراء حتى يخيل إلي وإلى من كان يراني من الناس أنني أبله قد فقدت الصواب، ثم لا أملك نفسي، وإذا أنا أسأل عن المدينة وعن القناة، وإذا أنا أسمع ويا شر ما أسمع. أنني قد بلفت المدينة وأن القناة قد ماتت منذ زمن بعيد وأن معالم المدينة قد تغيرت منذ هدم معمل السكر، ماذا أسمع! معمل السكر

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

قد هدم، وماذا بقي إذاً في المدينة؟ أو ماذا جئت أرى في المدينة! ماتت القناة، وهدم معمل السكر! وغيرت المعالم؛ وانتقل أكثر من كنا نعرف في المدينة من الناس.

يا للحزن والأسى، يا للوعة والحسرة، يا لليأس والقنوط.
أبيلغ المنف بالزمان أن يمحو هذا المقدار الضخم من حياة الناس في أعوام قصار. لقد جد جيل وجيل في إقامة معمل السكر وإقامة ما حوله من الدور، بل من القرى. لقد عاش جيل وجيل، بهذا المعمل ولهذا المعمل. لقد عاش جيل وجيل بهذه القناة ومن هذه القناة. فكل هذا الجهد، ولك هذا العناء، وكل هذه الحياة، وكل هذه الذكرى، وكل ما كان على شاطئ القناة وحول معمل السكر من جد وهزل ومن لذة وألم، ومن حب وبفض، ومن أمل ويأس، ومن مكر ونصح، ومن خداع وإخلاص، كل هذا يذهب في أعوام قصار لا تكاد تبلغ عدد أصابع اليد الواحدة، كأن شيئاً من هذا لم يكن، وكأن نفساً لم تتأثر بما أثارته الحياة في هذه الأرض من المواطنف، وكأن شفة لم تبتسم لما أنبتته هذه الأرض من مناظر الجمال، وكأن عيناً لم تبك لما شهدت هذه الأرض من أسباب الحزن والأسى. يا للحزن اللاذع، ويا للألم الممض، ويا لليأس المهلك للنفوس! لقد ماتت قناتنا أيها الصديق، ماتت ودفن فيها أو صرف عنها ذلك الإله الشاب من آلهة الأساطير الذي كان ينطلق فيها فرحاً مرحاً هادئاً وادعاً مستبشراً يرسل البشر من حوله جميلاً يثير الجمال على جانبيه. مات هذا الإله الشاب فدفن في مجراه، أو طرد هذا

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

الإله الشاب ورد عن مجراه وفني في الإبراهيمية. فأصبح ماء من الماء وجري لا يتميز من غيره، لا يعرفه أحد ولا يعرف هو أحداً، لا يثير في نفوس الناس حزناً ولا فرحاً ولا يجري أسنتهم بالحديث، نسيه الناس، ونسي هو الناس، بل نسي نفسه أيضاً. إنك لتعرف أن آلهة الأساطير لا حياة لهم إلا إذا أقيمت لهم المعابد وأقاموا هم في المعابد. فإذا هدمت مقابرهم فقد ماتوا أو طردوا من الأرض طرداً، فقد هدم معبد هذا الإله الشاب، وماتت القناة فمات هو أو نفي من الأرض طرداً، وأصبح حديثاً كغيره من الآلهة الذين أصبحوا أحاديث. أتدري أين أكتب إليك؟ إنني أكتب إليك في مكان لم يتغير لأن الحضارة لم تدع إلى تغييره، ولم يتبدل لأن المنفعة لم تأمر بتغييره. ولأن يد الإنسان لا تكاد تجرأ على أن تمتد إليه. إنني أكتب إليك عند المسجد، عند باب البحر، أتذكر هذا الباب، هو الذي يدخل منه المترفون الذين لا يحتاجون إلى أن يمروا بالمیضأة لأنهم يتوضأون في بيوتهم. ولا أن يمروا بالمنطس لأنهم يستحمون في بيوتهم، أتذكر هذا الباب؟ إنه ينتهي بك إلى فنائه ولا إلى الصحن المنبسط أمامه. أنك إذا دخلت منه لم تكذ تخطو خطوات حتى تجد عن يمينك قبر ذلك الفني الذي بناه. أتذكر هذا الباب؟ إنك إذا أقبلت عليه وجدت مقعدين من الحجر يكتنفانه عن يمين وشمال. فأنا أكتب إليك عند هذا الباب وأكتب إليك قائماً لا قاعداً. وأكتب إليك وقد وضعت القرطاس على أحد هذين المقعدين المرتفعين وقمت أمامه أجري يدي بما تلقى هذه النفس الحزينة على هذا القلم الشقي.

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

لقد أطلت ولكنني لم أحدثك إلا بأيسر الحديث، لقد أطلت ولكنني لم أحدثك عما رأيت، بل لم أحدثك عما لم أر. فإن ما رأيته لا يستحق الحديث، وإنما الذي يستحق الحديث هو هذه المعالم التي أقبلت زائراً لها. فلم أر منها عيناً ولا أثراً، وسألت عن بعضها فلم أجد بين الناس الذين سألتهم من يعرف لها نبأ أو يروي عنها خبراً. هذه المعالم التي جئت لأراها والتي لم أرها، هي التي تستحق الحديث. لن أرسل إليك هذا الكتاب حتى أتّمه. ولن أتّمه الآن. فقد آن لي أن أروح إلى قريتنا حيث ينتظرنني الحزن والسخط والبؤس والشقاء.

نعم لن أرسل إليك هذا الكتاب حتى أتّمه، فما ينبغي أن أحتمل وحدي ثقل هذا الحزن، وما أظن أن غيرك وغيري من الذين نشأوا في المدينة يحزنهم أن يعلموا بموت القناة أو بتغيير ما ألفوا من المعالم أو يتفرق من ألفوا من الناس.

وأكتب إليك الآن من قريتنا وقد بلفتها مع الليل فألهاني ما شهدت فيها بعض الوقت عما كان يملأ نفسي من الحزن والحسرة، ولو أنك رأيت ما رأيت، للهوت كما لهوت، ولما استطعت أن تمنع نفسك من ضحك ينفذ إليه حزن غير قليل. فقد رأيت أهل الدار وقد ملكهم جزع غريب لم يحكموا فيه عقلاً ولا روية وإنما اندفعوا فيه اندفاعاً. افتقدوني وجه النهار فلم يجدوني وانتظروني حتى انتصف النهار، وهم يظنون أنني قد خرجت لبعض ما يخرج له الشباب من الفزحة والتماس التروض

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

والعبث في الحقول. ولكنني لم أعد مع الظهر، ولم أعد مع
المصر، فلم يشك أحد في أنني لم أخرج لنزهة ولا لتروض وإنما
فررت منهم فراراً، وعدت إلى القاهرة أنتظر فيها يوم الرحيل.

وتستطيع أن تصور لنفسك ما ملأ نفس الشيخين من هذا
الحزن العنيف الذي يملؤه السخط والغضب. وتملؤه الرقة والرحمة
في وقت واحد. لقد كنت ابناً عاقاً يرتحل دون أن يودع أبويه،
فكنت خليقاً أن أثير السخط والغضب والموجدة، ولكنني كنت ابناً
يرتحل إلى بلد نازح، فكنت أثير الرحمة والحب والحنان، وكانت
غريبة هذه الدموع التي كانت تنحدر من عيني أُمي. لا يعرف
الناس أُمي دموع الغيظ والحنق أم هي دموع الوجد والحنين.
وكانت غريبة هذه الأنفاذ التي كانت تتطلق متصلة على لسان أبي،
لا يعرف الناس أصدرت عن أب ينكر على ابنه عقوقه وجحوده
وقسوة قلبه الغليظ، أم صدرت عن أب ينفطر قلبه حزناً لأن ابنه
قد سافر إلى بلد مجهول، وهو لا يعرف متى يعود ولا كيف يعود.

ثم كانت غريبة هذه المواطف التي ثارت في نفسي حين
بلغت الدار فرأيت الشيخين راضيين يظهران السخط، ومسرورين
يتكلفان الحزن، ومبتهجين يتصنعان الاكتئاب. ففي قلبهما إذاً
عطف عليّ. وهذا الغضب الذي أراه وأتأذى له ليس إلا مظهراً
من مظاهر هذا العطف، ولوناً من ألوان هذا الحب، وصورة من
ظهور هذا الحنان، وإذاً فسأسافر إلى هذا البلد الغريب وأنا واثق
بأن الذي سيصحبني في هذا السفر هو الحب والعطف والحنان لا

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

السخط والفضب والموجدة. ولعل خروجي إلى المدينة لم يكن شراً كله وإنما كان فيه بعض الخير، على كثرة ما أثار في نفسي من الآلام الملحة الباقية، فلأول مرة عدت إلى القرية استطعت أن أظفر من أبوي بساعات فيها هدوء وطمأنينة وحديث متصل مختلف، كأن عودتي إليهما من الرحلة القصيرة التي انقضت قد ألتهما عن تلك الرحلة الطويلة التي لم تبتدئ بعد. وكان أكثر حديثنا عن المدينة التي زرتها، وعمّا تغير من معالمها ومن تفرق من أهلها. وكان الشبخان يتحدثان إلي في ذلك كله حديثاً هادئاً مطمئناً يفشاه حزن خفيف وتتردد فيه ذكريات مؤثرة، ولكن قوامه الرضى بما كان والسخط على ما هو كائن والأمل في ما سيكون. وكانت أحاديثهما متممة لما رأيت وما علمت، ومتممة في الوقت نفسه لتشييد هذا المعبد الحزين الذي أقمته في نفسي لهذه الحياة المنقضية ولهذه المهود الماضية ولهذه الذكريات التي ستبقى ما بقيت.

نعم كانت أحاديثهما متممة لتشييد هذا المعبد الحزين الذي أقمته في نفسي والذي يجب أن تقيم مثله في نفسك لذلك المهدي الذي مضى إلى غير رجعة ومات إلى غير نشور. ولا بد من أن أتمم لك ما تم في نفسي من تشييد هذا البناء المظلم الحزين الذي ستتردد فيه الذكريات حائرة مضطربة كما تتردد هذه الطير التي تألف الظلمة في البيت المظلم الحزين.

وماذا تريد أن أقص عليك من أمر المدينة؟ لم يبق فيها

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

شيء مما كنت تعرفه وتألفه. ماتت القناة فمات من حولها كل شيء. فأما حديقة المعلم فتستطيع أن تلتمسها في نفسك واجتهد إن اسطعت أن تستحضر ما بقي من صورتها وأن تثبته. فإني أخشى أن يمبث الزمان بالصورة كما عبت بالأصل. وأما بيتكم فلن تراه إلا في الخيال يقظان أو في الحلم نائماً. وكذلك هذه البيوت الحسان التي كانت تقوم على شاطئ القناة والتي كنت تحب أن تدخل بمضها لتتحدث إلى محمود عثمان. ولتسمع لمزينة وأمينة. وقد مضى أهلك إلى أقصى الصعيد، وهبط أهل عزيزة وأمينة إلى القاهرة. فتستطيع أن تلقاهما إن شئت. فقد كنا نسمع أنهم كانوا يقيمون في بولاق قبل أن ينقلهم العمل إلى مدينتنا.

وأنت تعلم من غير شك أن عم «حسنين» قد انتقل إلى السودان بعد أن عصف الموت بيته فأذوى منه غصوناً وأذبل زهرات. ولكنك تجهل أن «حسن كوزو» قد رحل إلى عزبة «المكسرين» وأنت لا تعرف عزبة «المكسرين»، فهي قطعة من الأرض منحتها الحكومة لعمال الدائرة السنية الذين عجزوا عن العمل. فهم يقضون فيها ما بقي لهم من حياة.

فأما سيدنا فقد ارتحل إلى حيث لا يؤوب المرتحلون وسبقته حماته الشمطاء ذات اللسان الحاد الذي لم يكن يعرف السكون. واستأنفت زوجته الشابة حياتها سعيدة مع ذلك الذي كان يدور حول بيتها كما كان يدور الأحوص حول بيت أم جعفر. وفقدت عالية أم غريب زوجها الضربير ثم انتقلت مع أبنائها إلى حيث لا

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

يعلم أحد. وطارت أم محمود مع عوى من أهل المدينة. ذهب بها إلى حيث لا ينكر الناس عليه غوايته. ولقيت زنوبة من دهرها شراً ونكراً. فخانها زوجها جهرة بعد أن كان يخونها سراً. وأثر عليها بنت أخيها الفتاة. ثم مضى الدهر في تنكره لها ومكره بها ففقدت بصرها. وعاشت أعواماً لا ترى النور. ثم رأفت بها الأيام فأخرجتها من هذا العالم الذي لا يكمل الصفو فيه.

أتريد أن تعلم أكثر مما علمت وأن تحزن أكثر مما حزنت؟ فقد هدم الكُتاب هدماً. وذهب ما كان حوله من الأشياء ومن كان حوله من الناس.

نعم هدم الكُتاب هدماً. وما أعرف أن شيئاً مما رأيت أو شيئاً مما لم أر. ترك في نفسي من الآثار المؤلمة والندوب التي ستبقى ما بقيت مثل ما تركه فيها منظر الكتاب المتهدم. فما تزال معالم الكُتاب باقية. على نحو ما كانت تبقى معالم الديار لقدماء الشعراء. فالكُتاب الآن ظل تمحوه الأيام شيئاً فشيئاً وتبقى من آثاره إلى الآن بقية مؤذية حقاً. لقد ماتت القناة عن شماله وسويت الطريق عن يمينه، ونزع منها ذلك الخط الحديدي الضئيل الذي كانت تمضي عليه تلك القطارات الزراعية الصغيرة تحمل القصب إلى معمل السكر أثناء العمل وتحمل التراب والحصى إذا كان الفيضان لردم هذا المستنقع العظيم الذي كان يؤذي المدينة في كل عام.

نزع هذا الخط وسويت هذه الطريق وقلّت الحركة عن يمين

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

الكتاب وشماله. وعملت معاوّل الهدم في الكتاب نفسه وفي ما كان يجاوره ويوازيه من البناء حول دار المأمور، فالمنظرة التي كانت أمام الكتاب والتي كان ينزل فيها أضياف المأمور قد هدمت كما هدم الكتاب، وأصبحت طلالاً مثله. والبيت الذي كان يقوم وراء الكتاب وتميش فيه أسرة عم نوح قد هدم كما هدم الكتاب، وانتشرت هذه الأطلال في هذا الفضاء انتثاراً محزناً مؤثماً. ولكن مكان الكتاب بينها يثير في النفوس أسي غريباً ولوعة محرقة حقاً. إن أرضه ما زالت مرصوفة بهذه الأحجار التي كان يفلسها التلاميذ مساء الأربعماء من كل أسبوع بعد أن يقرأوا الحزب، وإن عتبه ما زالت قائمة ولم تمح جدرانها كلها محوياً؛ وإنما بقي منها شيء يرتفع هنا وينخفض هناك، وتستطيع أن تتبين مواضع المقاعد الخشبية التي كانت مسندة إلى هذه الجدران والتي كان يجلس يدنا على أحدها عن يمينك إذا دخلت ويجلس العريف على أحدها الآخر عن شمالك إذا دخلت، ويجلس المترفون من التلاميذ على سائرها ثم يختلط بينها الفقراء وأبناء الشعب، على حصر ممزقة تستر بعض الأرض وتبين عن بعضها الآخر، ولا تكاد تجدد إلا حين تستحيل إلى قش لا يكاد يتصل، وحين يجود بمض الأغنياء بما يقوم مقامها.

قل ما شئت واعجب بالشمر ما أحببت واحفظ من وقوف الشعراء على الأطلال وبكائهم على الديار وذكرهم للطاعنين ما استطعت أن تحفظ. فسيظل هذا كله في نفسك كلاماً أجوف لا يحتوي شيئاً ولا يدل على شيء، حتى تقف موقفاً كالذي وقفته

منذ حين بين هذه الأطلال عن يمين وشمال، وحتى تذكر ما ذكرت من هذه الحياة القوية الغنية الخصبة التي كانت ملؤها الحركة والنشاط، وتضطرب فيها الأماني والآمال، وتختصر جيلاً مضى وتنبئ عن جيل مقبل، فذهبت هباء وتفرقت في الأرض، ولم يبق منها في هذا المكان إلا صدى لا يحسه الناس جميعاً، ولا يقدررون وجوده، وإنما يحسه مثلك ومثلي من الذين اشتركوا في هذه الحياة وتأثروا بها وملأوا من صورها النفوس والقولب. لقد وقفت على الكتاب وقفة طويلة وجملت أنظر حولي فلا أرى إلا هذه الأحجار المتناثرة وأمد أذني فلا أسمع إلا هذا الصدى الذي كان يضطرب في الفضاء، ولكني مع ذلك كنت أرى رفاقنا جميعاً، وقد أخذوا مجالسهم في الكتاب، هذا يقرأ، هذا يسمع، وهذا يلفو، وهذا يكتب، وهذا يلعب، وكنت أحلل هذا الصدى المتردد فأجد فيه هذا اللفظ الذي كان يُسمع من مكان بعيد فيدلُّ سامعه على مكان الكتاب، ولولا أنني ما زالت محتفظاً ببقية إرادة، وفضل من القدرة على ضبط النفس لجننت ولتحدثت إلى هؤلاء الأشخاص الذين كنت أراهم يجرون ويلعبون، ولشاركتهم في الجري واللعب. لا أخفي عليك أنني ملكت نفسي فلم يذهب بها الجنون، ولكني لم أملك عيني، ففاضت منهما الدموع. هممت أن أمضي ولكني لم أسلك الطريق العامة حيث كان يمتد الخط الحديدي. وإنما هممت أن أمضي نحو بيت المأمور، فما راعني إلا النخلتان اللتان كانتا تقومان بين الكتاب وبيت نوح، وإذا هما قائمتان كمهدما تبسطان ما كانتا تبسطانه من الظل، وتحملان

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

ما تمودتا حمله من التمر الذي لم يتم نضجه بعد وتلقيان ما كانتا تلقيان من بعض هذا التمر الذي كنا نلتقطه فنمبث به، ثم كنا نلتقطه فنأكله إذا قارب النضج، ثم كنا نزدحم عليه ونتناهس فيه إذا تم نضجه، وما زالت النخلتان قائمتين بين هذه الأطلال المتهدمة ولكنهما قد فقدتا ما كانتا تبمثنان من بهجة، وظهرت عليهما كأبة عميقة حزينة مثيرة لليأس كأنهما تجدان الوحشة في هذا المكان الذي خلا بعد عمران، ومات بعد حياة.

لقد وقفت عند هاتين النخلتين لحظة ما أعرف أنني قضيت مثلها. ولقد ذقت في هذه اللحظة من لذة الذكرى وألم الحسرة ما لا أعرف أنني ذقت مثله قط. وإني لأذكر الآن هاتين النخلتين فأمنحهما حباً ومودة وأمزاً بهذا الامتحان الذي أخضعكم له ذات يوم أستاذ من أساتذتكم في الجامعة حين ذكر حلوان ثم استطرد إلى نخلتي حلوان ثم كلفكم أن تبحثوا عن هاتين النخلتين أين كانتا وماذا قيل فيهما من الشمر ومن ذا تفنى بهما من الشعراء. لقد أجهدت نفسك في البحث، ولقد كنت تعجب بشعر مطيع في هاتين النخلتين. ولقد كتبت كلاماً كثيراً عما عرفت من أمر هاتين النخلتين، ولقد كنت راضياً عن نفسك لأن الأستاذ كان راضياً عنك، ولكن ماذا تركت نخلتا مطيع في نفسك من أثر، وماذا بعثتا في قلبك من عاطفة؟ إنما هو كلام يروي ثم يثير في أنفسكم العجب والتهيه والفرور أكثر مما يثير فيها الشعور الصادق بالجمال الصادق. أسرع أيها الصديق إلى مدينتنا فالمم بها يوماً أو بعض يوم قبل أن تمحى معالم الكتاب

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

محوأ، وقبل أن تُجثت النخلتان اجتثاناً، وقبل أن تتم الحضارة
عماراتها الشاهقة، على هذه القبور العزيزة التي دفنا فيها
الصبي، وما كان يملؤه من الفرح والمرح ومن الحياة والنشاط.
أسرع إلى النخلتين فاجلس إليهما واستظل بظلهما ثم أنشد شعر
مطيع، فستفهمه وستذوقه وستشعر بما يصور من الحزن كما شعر
به مطيع نفسه.

ليت الأيام تتيح لي أن أحقق أمنية تضطرب في نفسي
فأجمع نقرأ من رفاقنا ونقصد إلى الكتاب وإلى ما حوله من
الأطلال، وإلى النخلتين فننظر ونسمع ونجلس ونتحدث ونحيي
عهدنا القديم ساعة أو بعض ساعة.

لست أدري أتقرأ هذا الكتاب الطويل أم تضيق به، وتشفق
من طوله، وتكره أن تنفق في قراءته من وقتك ما أنت في حاجة
إليه، لتستعد لدرس من الدروس، أو لتقرأ في كتاب من الكتب، أو
لتحفظ من بعض الدواوين، ولكني لم أكن أستسيغ أن أكتب إليك
أقصر مما كتبت، ولولا إشفافي عليك وراثتي لك لكتبت إليك
أطول مما كتبت، فقد تقدم الليل حتى تجاوز نصفه، فكل شيء
ساكن من حولي إلا هذه الأصوات التي تبلغني من حين إلى
حين، أصوات الحضراء حين يتنادون أو أصوات الديكة، فتحسب
أن الفجر قد لاح، فتصدق بنداؤها العذب لتلقاه بالتحية ولتنشئ
الناس بمطلعه. ثم تعلم بمد ذلك أنها قد خدعت، أو هي لا تعلم
شيئاً وإنما يمضي بها النوم في أمواجه المتصلة المتلاطمة فتمود

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

إلى الصمت وتفرق فيه. ولعلي أجرد نفسي من خواطرها، وأسلها مما حولها سلا. وأعلقها في هذا السكون تعليقاً، فأسمع أصداء تتردد ويدعو بعضها بعضاً ويجيب بعضها بعضاً، وتصور لي ذلك الصدى الذي كنت أسمعه في الكتاب ثم أريد أن أحلل هذه الأصداء وأردّها إلى أصولها، وأتخذ لها أشخاصاً أحياء، فيخيل إلي أنها نفوس الأجيال التي سكنت قرينتنا على اتصال الزمن، ويخيل إلي أن أجسام الناس والحيوان والأشياء هي وحدها التي تزول، وهي وحدها التي تتغير، وهي وحدها التي تبرح الأرض. فأما نفوس الناس والحيوان والأشياء فمتصلة بالأرض لا تبرحها، مضطربة في الجو لا تفارقه ولا تزول عنه، وإنما هي تملؤه حياة لا يشمر بها الأحياء إلا إذا سلوا أنفسهم من المادة سلا، وعلقوها في سكون الليل تعليقاً. لقد تقدم الليل حتى جاوز نصفه وكاد يبلغ ثلثيه، ولقد سكن من حولي كل شيء، وأنا لا أسمع دعوة النوم ولا أحس مقدمه، ولا أرغب فيه، وإنما أنا حريص كل الحرص على أن أبقى مع هذه الذكريات أتحدث إليها، وأسمع منها حين أتخذها موضوعاً لما أحمل هذا الكتاب إليك من حديث، وما أظن أن الفجر سيلقاني نائماً بل أنا واثق بأنه سيلقاني يقظاناً. ولولا أن يراع أهل الدار وأن تُظنُّ بي الظنون لخرجت لاستقباله في الفضاء، فأنا أكره أن يدخل عليّ نوره من النافذة، كأنه اللص. وأحب أن ألقاه في الفضاء الطلق، فأملأ به نفسي وقلبي، وألتمس في ضوئه الهادئ الحلو هدوءاً لهذه الثورة التي لا أستطيع أن أكبح جماحها، ولا أن أنتهي بها إلى السكون.

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

يا للحزن ويا للأسى! يا للوعة ويا للحسرة: ويا لليأس، يا للقنوط! لقد أقبلت على الريق وكنت أظن أنني سأملأ عيني وأذني ونفسي وقلبي بما أحببت وبما ألفت، وأني سأحمل هذا كله إلى حيث أريد أن أقيم وراء البحر، فلم أجد شيئاً وهانذا سأعود إليك بعد أيام، ثم أرحل إلى مصر بعد أسابيع لا أحمل في نفسي إلا أطلالاً متهدمة، ونخلتين قائمتين صامتين تجدان الوحشة، وتبمثنانها من حولهما، ما أكثر ما كنت أريد وما أقل ما وجدت وما أكثر ما يعيب بنا من الآمال.

تقبل تحية صديقك اليائس.

وأنا أعترف أنني تلقيت هذا الذي هو أشبه بالسفر منه بالرسالة في شيء من الخوف والإشفاق من طوله، ولكنني تمودت من صديقي طول الحديث واختلافه وكثرة الافتتان فيه، فأبقيته يوماً كاملاً لم أقرأه، ولم أعرف ما فيه حتى فرغت له آخر النهار فقرأته، ولكنني لم أحس له من الأثر مثل ما أحسست له حين أعدت قراءته في هذه الأيام. وكان الأمد بين صديقي وبينني كان بعيداً أشد البعد، فقد كنت أقدر الذكرى وأنس إليها وأحب التحدث عن المهود القديمة، ولكنني لم أكن أكلف بهذه المهود ولا أحفل ولا آسى عليها.

ولعلي كنت مدفوعاً إلى أن أسخر منها سخرأ غير قليل، فقد كنت مفتوناً بحياتي في القاهرة راضياً عما كنت ألتقاه كل يوم من جديد الأمر، مبتهجاً بما كانت تفتح له نفسي كل ساعة من

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

العلم. وكان هذا النشاط العقلي يبهرني، ويسحرنني ويدفمني إلى طور من أطوار الحياة يشبه أن يكون سكرًا متصلًا. وكان تذكر المهود القديمة يؤذيني لأنه يخرجني من هذه الحياة اللذيذة بمض الشيء، ويردني إلى تلك الحياة التي طالما ضقت بها أيام كنت صبيًا ناشئًا في الريف. فلم أحفل بالقناة ولا بموتها، ولم أحفل بالخط الحديدي ولا بانتزاعه، ولم أكثر للكتاب ولم أعرف للنخلتين خطرًا. وما قيمة الكتاب وما قيمة النخلتين ولم يقل أحد في الكتاب ولا في النخلتين شعراً، ولم يتحدث كتاب قديم عن الكتاب ولا عن النخلتين ولا عن القناة ولا عن الخط الحديدي، ولا عن معمل السكر. والله عز وجل قادر على أن يغير لي الخطيئة ويمحو لي عن الذنب، ويتجاوز لي عن السيئة، فقد لقيت ما أنبأني به صديقي من موت سيدنا بشيء من الابتسام وهز الكتفين. أما الآن فأراني مع صديقي متلمساً أصل القناة باحثاً عما ألفنا من الأحياء والأشياء. حزيناً ملثماً بل يائساً قانطاً، أما الآن فإني أقرأ هذا الكتاب فأسال نفسي: أين ذهب الكتاب والنخلتان؟ وماذا قام في ذلك المكان، الذي قضينا فيه شطراً من حياتنا لعله خير ما أتبع لنا أن نحيا.

يونيو في...

لم يؤوني البيت منذ فارقتك ظهر أمس يا حميدتي العزيزة. ومع ذلك فقد قضيت فيه وقتي كله منذ انصرف بك القطار عن القاهرة إلى هذا الوقت الذي أكتب إليك فيه وقد كاد يرتفع

الضحى. ذلك أن في نفسي صورة لا تريد ولا أريد أنا أن تفارقني، وهي صورتك قبل الرحيل وقد انتحيت ناحية من غرفتنا ووقفت واجمة لا تنطقين. ثم لم أكد أقبل عليك وأدعو باسمك حتى رفعت إلى عيناً مثقلة لا تريد أن ترتفع، ثم انهمرت دموعك انهماراً صامتاً لا يتبعه ما يتبع دموع النساء عادة من زفير وشهيق. وقد نظرت إليك وأنت في هذه الحال ساعة لم أقل لك شيئاً ولم أقل لنفسى شيئاً، وإنما وجمت كما كنت واجمة، ثم انهمرت دموعي كما انهمرت دموعك، ثم قام كل منا في مكانه لحظات لا أدري أكانت طوالاً أم قصاراً، ولكنها كانت لحظات صمت عميق يفمره دمغ غزير. ثم سميت إليك في رفق فضممتك إليّ وطوقتك بذراعي، فلم تقولي شيئاً وإنما أسندت رأسك إلى كتفي وظل دمعي ينهمر سخيناً غزيراً، ثم أخذت رأسك بين يدي، ولثمت عينيك كأنما أريد أن أشرب دمعي شرباً، ثم قبلت جبهتك وخديك، ثم ضممتك إليّ مرة أخرى فقبلتني ثم افترقنا ومضى كل منا في الاستعداد للرحيل.

لم تفارقني هذه الصورة أو هذه الصور ولا أريد أن تفارقني؛ فما زلت منذ أمس أنظر إليك واجمة وأرى دموعك تنهمر ثم أراك بين ذراعي تذرفين دموعك على كتفي، ثم أراني أقبلك وأراك تقبليني، ثم أراك تسمين في الغرفة ذاهبة جائية تهيئين متاعك في صمت متصل لا يقطعه شيء حتى ولا زفرة من الزفرات. ولقد اضطربت المدينة في بقية النهار وشطراً من الليل

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

ولقيت كثيراً من الناس فتحدثت إليهم وسمعت منهم، وخيل إلي أنهم يفهمونني وخيل إلي أنني أفهمهم، وخيل إليهم في أكبر الظن أنني كنت كما تمودوا أن يروني دائماً ثرثاراً ساخراً متصل الميث والمزاح، ولكن الله يشهد ما خلصت لواحد منهم لا خلص لي واحد منهم، وإنما كنت أمنحهم بعض نفسي أو كنت أمنحهم أيسر ما يستطيع الرجل أن يمنح من نفسه. وكنت أرى أن هذا يكفي لأفهم عنهم وليفهموا عني، وكانت خلاصة نفسي مملوءة بك منصرفة إلي تملؤها هذه الصورة وتمتزج بها امتزاجاً حتى لكانها هي ولست أدري: أتعرفين أنني كثير التفكير والتحليل، وأني لا أحس شيئاً ولا أجده إلا فكرت فيه وحاولت تحليله وتعليقه! ولكن كيف تعرفين ذلك أو تقدرينه ولم يكن بينك وبينني إلا أيسر ما يكون من الصلات بين الأزواج؟ فأنت لا تعرفين من أمري إلا أقله وأيسره، وأنا لا يفوتني من أمرك إلا أقله وأيسره. لست أدري، أتعرفين أنني كثير التفكير والتحليل؟ ولكن حين رأيت إلحاح هذه الصور علي ولزومها لنفسي وامتلاكها لقلبي وامتلاء خواطري بها، وأحسست ما كان بينها وبين نفسي من الامتزاج، أخذت أفكر في ما يقوله بعض الناس من أصحاب التصوف حين يتحدثون عن امتزاج الطرف بالمظروف والعقل بالمقول والفكر بموضوع التفكير. ولكن في ما أتحدث إليك يا حميدة البائسة: إنني لأقص عليك سخفاً لا يفني ولا يستطيع أن يبلغ سمعك ولا أن يستقر فيه ولا أن يتجاوز إلى قلبك الحزين. وما أنت وما هذا الكلام! وما أنا والتحدث به إليك! وإنما أريد أن أرسل إليك كتاباً كله حب وكله بزم وكله حنان. فأين

هذا مما أخذت أهذي به وأخوض فيه!. أفكُتَب علينا ألا تلتقي نفسانا فيطول بينهما اللقاء؟ أفكُتَب علينا ألا يكون بيننا هذا الامتزاج الحلو الذي لا يخفى معه من أحدنا شيء على صاحبه لا من حسه حين يحس، ولا من شعوره حين يشعر، ولا من تفكيره حين يفكر؟! أفكُتَب علينا أن تلتقي أجسامنا وألا تلتقي نفوسنا إلا لحظات قصاراً في نظرات قصار سراع كأنما نختلسها اختلاساً؟! ولكن أتفهمين عني ما أقول؟ أتحسين ما أحس؟ أتجدين ما أجد؟ إني لم أتمود أن أتحدث إليك مثل هذا الحديث، وإنما تمودت ألا أتحدث إليك إلا قليلاً، وألا أتحدث إليك إلا في أيسر الأشياء وأدناها إلى السخف وأشدّها اتصالاً بشؤون حياتنا المادية مما يمس شؤون البيت. ما أذكر أنني تحدثت إليك في الحب، وما أعلم أنك تحدثت إليّ فيه. كنت أرى أنك لن تفهمي عني إذا تحدثت إليك بما أجد. وكان الحياء يمنك من أن تتحدثي إليّ بيمض ما تجدين. وكنا نكتفي بالنظرات الحلوة القصيرة يلمؤها الحنان. وكنا نكتفي بحلاوة الصوت ولين الألفاظ وعذوبة النبرات حين نتحدث في أي شأن من الشؤون ليشر كل منا بما يجد من الحب والمطف ومن الحنو والإخلاص. وكانت حياتنا على هذا النحو صريحة واضحة في شؤونها المادية. وكانت رمزاً أو شيئاً أشد غموضاً من الرمز في ما يمس شؤون القلب والنفس والضمير. ولعلنا لم نشعر قط بأن لنا شيئاً من حياة القلب والنفس والضمير؛ فلم نفكر قط في تحليل ما بيننا من صلة أو في تأويله وتعليقه. ومتى كنا

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

نستطيع أن نفكر في ذلك وقد كنت مشغولاً عنك بالمعمل والكتاب. وكنت مشغولة عني بالبيت. وكنا لا نلتقي إلا لتحدث في ما يتحدث فيه الأزواج من الأمور غير ذات الخطر التي لا تمس قلباً ولا نفساً ولا ضميراً. ماذا أقول! وإلى من أكتب؟ وإلى من أسوق هذا الحديث؟ أتريد أنك تفهمين عني هذا الكلام؟ ما أظن! فكيف تفهمينه وأنت تسمعينه لأول مرة! ومع ذلك فإني شديد الحاجة إلى أن أتحدث إليك كما تعودت أن أتحدث إلى نفسي بهذا الأسلوب المسير الدقيق. وعلى هذا النحو الذي لا ينقصه العوج ولا الالتواء.

ومع ذلك فقد كان يسيراً كل اليسر. هذا المعنى الذي أردت أن أتحدث به إليك حين بدأت هذا الكتاب: فقد كنت أريد أن أنبئك بأنني لم أستطع أن أستقر في بيتنا بعد فراقك؛ لأنني وجدت فيه وحشة نفتني عنه وجعلت مقامي فيه مستحيلاً. فهمت في المدينة وتلمست السلوة عند الأصدقاء بقية النهار وطول الليل. ولم أستطع مع هذا أن أنسى البيت أو أنسى غرفتنا فيه أو أنسى صورتك في هذه الغرفة طول هذا الوقت رغم الاضطراب في الأرض والاختلاف إلى الأندية والاتصال بالأصدقاء.

هذا ما كنت أريد أن أتحدث به إليك حين أخذت أسطر هذا الكتاب: فهو يسير سهل كما تريد، ولكنني مع ذلك لم أكد أخذ فيه حتى تعقد والتوى بي أو التوى عليّ، ودفعتني إلى أنحاء من التفكير ومذاهب من القول بعدت بي عن الغاية ولم أخلص

منها، ولم أعد إلى ما كنت أريد إلا بعد مشقة وعناء. وكذلك أنا في حياتي الشاعرة مضطرب ملتوٍ كثير الاستطراد. لا أفكر في شيء إلا أثار لي أشياء، ولا أخذ في مذهب إلا التوى بي إلى مذهب تشق شقاً من نواحيه؛ فأنا أيا من مرة وأيا سر أخرى، وربما نسيت الطريق التي أخذت فيها أول الأمر. ومضيت في الاستطراد إلى غير أمد.

وكذلك أنا في حياتي العملية لا آتي أمراً إلا أثار لي أموراً وفتح لي أبواباً من النشاط مختلفة الجهات باباً باباً. ولعلي ألج واحداً منها فلا أخرج منه، وإنما تفتح لي أبواب أخرى. فأنا مضطرب حين أفكر، وأنا مضطرب حين أعمل، وأنا مضطرب حين أقول. والغريب أنني أستطيع مع هذا الاضطراب كله أن أعرف لحياتي وحدة، وأن أتبين لها طريقاً متشابهة تنتهي أو تريد أن تنتهي إلى غاية مقاربة. ماذا أقول! هأنذا قد بمدت عنك وعمما أكتب إليك من أجله، وفرغت لنفسي أو شغلت بها؛ فأنا أدرسها وأسرف في درسها وتحليلها. وإن كنت أعلم أن لدي من الوقت ما يكفي للنظر في المرأة ولأرى هذه النفس التي أحب وأكره أن أراها. وليس لدي من الوقت ما يسمح لي بالتحدث إليك في ما أريد إلا القليل. ومن يدري! لعل نفسي غير الشاعرة التي تجور بي عن القصد وتنحرف بي عن الطريق المستقيمة لأنها تشفق من المضي إلى الغاية التي من أجلها أكتب، تشفق عليك وتشفق عليّ أيضاً. فإن الأمر الذي أريد أن أتحدث إليك فيه ثقيل خطير، ما أحسب أنك تقوين على استماع حديثي فيه.

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

وما أشك في أنني محتاج إلى شيء كثير جداً من الشجاعة والجلد
لأمضي في هذا الحديث. وكذلك ترفق نفسي غير الشاعرة
بنفسي الشاعرة. وتحميتها من بعض ما تكره، وتريد أن تؤخر
عنها المذاب. فما أشد سلطان الأثرة علينا وما أشد استثثار
الضمف بنفوسنا وما أشد امتلاك الخوف لقلوبنا، ولا سيما حين
نزعم أننا أهوياء، وحين نريد أن نظهر الناس على أننا أهوياء!
ولولا ذلك لما تكلفت هذا الكلام الطويل، ولما دفعت إلى هذا
القول الملتوي حين أحاول أن أنبئك نبأ مهما يكن ثقيلاً خطيراً
فهو واضح لا غموض فيه، ولكن أستحي منك وأستحي من نفسي
وأشفق من الصراحة فأتقيها بالفلسفة والتواء الكلام. فلأتشجع
إذا ولتتشجعي أنت أيضاً، ولأقل إذا ولتسمي أنت ما أريد أن
أقول! إن القلم ليضطرب في يدي، وإن يدي لتجمد فلا تكاد
تتحرك، وإنني لمحتاج إلى أن أكف عن الكتابة حيناً لأسترد القوة
والجراءة والنشاط. وهانذا أستاذ الكتابة وأدافع عن نفسي دفاعاً
شديداً لأحول بينها وبين الاستطراد، ولأكرهها على المضى في
ما تلتمس الفراغ منه، ولأحملها على أن تقسو عليك وعلّي فتلقي
إليك بهذا النبأ وهو أننا لن نلتقي بعد اليوم.

أفلا لقد أقيت العيب وتخففت من الثقل، واستطعت أن
أتنفس في غير حرج ولا ضيق، وأحسست كأنني أصبحت طليقاً
حرراً وقد كنت مقيداً مغلولاً؛ لا شيء إلا لأنني أقيت إليك هذا
النبأ بعد أن كنت أتحرج من إلقائه، وأصبحت ملزماً أن أعلله
لك وأن أفسره وأن أرد عن نفسي ما سيثور في قلبك من

الشبهات. وأنا أعلم أنك لن تصدقيني ولن تؤمنني لي ولن تقبلي شيئاً مما أقول. ولكنني أقسم مع ذلك ما طلقته عن قلبي ولا فارقته عن زهد فيك أو رغبة عنك أو نفور منك. وإني أقسم ما أحببتك قط كما أحبك الآن. وما أثرتك قط كما أوثرتك الآن، وما عرفت سلطانك علي ويدك عندي كما عرفتهما الآن. بل أقسم إنني لأحس كأنما أشطر قلبي شطرين، فأحفظ شطره في صدري وأرسل بشطره الآخر إلى مكان بعيد في أعماق الريف حيث لا يتاح لي أن ألقاه. بل أقسم ما طلقته إلا حباً فيك وإيثاراً لك وضناً بك على ما أكره. ولأكن صادقاً كل الصدق؛ فإن الضعف والمجز والجور. كل هذه الميوب هي التي تدفعني إلى أن أفارقك أشد ما أكون لك حباً وأعظم ما أكون لك حباً وأعظم ما أكون عليك حرصاً. لم أستطع أن أوثرك على أوروبا فأبقى معك، ولا أستطيع أن أطمئن إلى أنني سأكون وضيأ إذا عبرت البحر، فأحتفظ بما بيننا من صلة الزواج. ولست أريد هذا الوفاء الخلفي الذي يتصل بالنفس، فأنا واثق بأنني قادر عليه، بل أنا واثق بأنه سيمدبني وسيكلفني آلاماً وأسقاماً. إنما أريد الوفاء الكامل الشامل الذي يملك النفس كلها والقلب كله والضمير كله والجسم أيضاً. أريد هذا الوفاء الذي لا يبيع شركة ولا توهماً للشركة ولا تفكيراً فيها. وأنا أسف أشد الأسف محزون أشد الحزن، لأنني أعلم أنني سأمرض للفتنة إذا عبرت البحر، وأن بعض اللحظ سيمس قلبي، وأن بعض الجمال سيستهويني، وأن بعض الشر سيدفعني إلى شيء من الفتي. وما أحب أن أعرض

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

حبك، استغفر الله، بل ما أحب أن أعرض زواجنا للإثم والفساد. لا أستطيع أن أخفي عليك ما قد أقررت من إثم؛ لأنني لم أعودك ولم أعود نفسي الكذب. ولا أستطيع أن أقررت لك بما قد أقررت من إثم؛ لأنني إن فعلت أذيتك في غير حق وفي غير جدوى، وعرضت ما بيننا للفساد. وأنا إن كذبت عليك أهنت نفسي بالكذب. وإن اعترفت لك أهنت نفسي بالاعتراف. وإذا فمالي لا أستقبل الحياة شجاعاً جريئاً مستمتاً بلذاتها محتملاً لتبماتها!! كم كنت أريد أن أكون قوياً قادراً على أن أقاوم الشر وأعاف الإثم، وأحتفظ بقلبي طاهراً نقياً، وبجسمي عفيفاً نظيفاً، وأردهما إليك بعد العودة كما ارتحلت بهما عنك أول الرحيل، ولكنني عاجز عن ذلك، أو عاجز عن الاطمئنان إلى ذلك. والغريب أن من الممكن أن أعبر بحر الغواية ولا أغوى، وأن أقضي أعوام الغواية نقياً طاهر القلب، وأن أكون قد شقت على نفسي بهذا الحرج وحملتها ما كنت أستطيع ألا أحملها. هذا ممكن ولعله أن يكون. ولكنني لا أكتفي بالممكن ولا أطمئن إلى الظن. إنما أريد الثقة ولا سبيل إليها. وأطمع في اليقين ولا أمل فيه. ولهذا أتكلف ما أتكلف وأقدم على هذا الأمر العظيم.

أترين أنك فهمت عني؟ ما أظن! ومتى فهم العقلاء عن المجانين؟ أترين أنك صدقتني؟ ما أظن! ومتى صدق الناس مثل هذا الهذيان؟ يا للحزن ويا للأسى! لمن أكتب هذا الكتاب وإلى من أسوق هذا الحديث! إنك إن قرأته فلن تفهميه، وإن فهمته فلن تقبله، فكيف وأنت لن تقرئيه؛ إنني لفاقل ذاهل، إلى لمدته

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

مجنون. لقد انسيت أنك لا تقرئين ولا تكتبين. فمن الذي سيقراً عليك هذا الكتاب ويفسره لك من أهل الريف؟. كلا لن أتمه ولن أرسله إليك. ولن تعلمي من أمري إلا أنني رجل قاس غليظ مسرف في كفر النعمة وجحود الجميل! متتبع للأهواء والشهوات، لا أتخرج من شيء ولا أعرف لجموح نفسي غاية تنتهي إليها أو حداً تقف عنده. سيسقط النبا في أسرتنا كما تسقط الساعة. وسيلقونه إليك في عنف أو في لين، وستجزعين وتظهرين التجلد، وسيبكي قلبك وتتكلف عيناك الجمود. ثم ستمرّ الأيام، وستحرصين على أن يصل إليك بمضى أنبائي دون أن يُعرف منك هذا الحرص. ثم سيأتي الخاطبون. كلا لا أريد أن أمضي إلى أيعد من هذا الحد في التفكير؛ فما أرى أنني أقوى على هذا المضي. لقد أبطأ علي صاحبي وكلفني انتظاراً طويلاً. ليته يقبل فيخرجني من هذا العناء.

قرأ غلامي الأسود الصغير هذا الكتاب بعد أن انصرف عني صاحبي، فلم أكد أفرغ من قراءته حتى رثيت له، وسألت نفسي كيف يكون موقع هذا الكتاب من حميدة البائسة لو أنها استطاعت أن تقرأه وتظهر على ما فيه!

يوليو في....

لم تفارقني صورتها بعدُ أيها الصديق العزيز، ومع ذلك فقد مضت أيام وأيام منذ انصرف بها القطار إلى قرينتها في الريف، وحدثت بعد ذلك أحداث واختلفت شؤون، فلقيت من لقيت

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

وتحدثت إلى من تحدثت إليه، وأقدمت من الأمر على اليسير والخطير. ثم كانت الرحلة وهبط بي القطار إلى البحر ومضت بي السفينة إلى ما وراء البحر. وهأنذا أكتب إليك في غرفة من غرفاتها. وشهد الله ما فارقتني صورتها أثناء هذا كله في بقعة ولا في نوم.

ولقد سألت نفسي منذ عهد بعيد عن خير ما يستطيع الصديق أن يتمناه للصديق. وسألت نفسي حين عرفتك فأحببتك، وحين فارقتك فجزعت لفراقك. عن خير ما أستطيع أن أتمناه لك، وعرضت على نفسي أجوبة مختلفة لهذا السؤال. كنت أطمئن إلى بعضها حيناً ثم أدعه، وكنت أنصرف عن بعضها الآخر حيناً ثم أعود إليه. ولكن الحياة نفسها قد أجابت على هذا السؤال جواباً ما أحسب أنني سأتحول عنه. فخير ما أتمناه لك وخير ما أتمناه للصديق، وخير ما أتمناه للعدو إن طابت نفسي وأحببت للعدو خيراً، هو أن يجنبك الله أسباب الندم، ويمصمك من الاضطرار إليه والإيغال فيه. فلست أعرف ألماً أشد ولا حزنأ أذع ولا عذاباً أمض ولا شقاء مفسداً للحياة كهذا الذي يثيره الندم في نفس الرجل الذي يقدر من الأمر ما يأتي وما يدع.

واني لأقول لك هذا عن علم، وأتحدث به إليك عن تجربة. وأي تجربة! تجربة وددت لو أنني تحملت كل ما ذهت من الألم منذ عرفت الألم مرة واحدة ولم أدفع إليها. فيالها من منقص ماكر قادر يعرف كيف يلصاك جهرة فيقطع عليك كل أمل،

ويأخذ عليك كل طريق، ويردك إلى حزن مظلم متكاثف الظلمة لا منفذ للنور منه، فإذا ألح عليك بالهم والحزن وبالتنقيص المتصل والكدر المتقطع حتى انتهى بك أو كاد ينتهي بك إلى اليأس المهلك، جلا عنك غمراته، ونفس عن قلبك وعقلك بعض الشيء، وخيّل إليك أنك قد رُددت إلى الفضاء الواسع والهواء الطلق والضوء المشرق. ولكنك لا تكاد تذوق الراحة وتطمئن إلى بعض الأمن، حتى يمسك هذا الشيطان الخفي مسكاً رقيقاً ولكنه عنيف، ليئناً ولكنه يبلغ غاية القسوة. يَخز نفسك بين حين وحين وخزاً يسيراً ضئيلاً خفيفاً لا يكاد يُحس، ولكنه يذكرك بمكانه، وينبهك إلى أن في هذا الهواء الطلق راحة لجسمك إن تتسمته مطمئناً فارغ البال. ولكن يجب عليك ألا تطمئن وألا يفرغ بالك؛ فهو هنا قريب وإن ظننته بعيداً، وإنه دانٍ منك كل الدنو وإن حسبته نائياً عنك كل النأي. فإن كنت في شك من ذلك فانظر واشعر وسل نفسك عن هذا الوخز الخفيف الذي تجده، ما هو أو من أين يأتيك؟ فستعلم أنه من هذا الشيطان وألم هذا الندم الذي إن رقه عليك فإنه لم ينسك، ولا ينبغي له ولا ينبغي لك أن تظن أنه سينسك.

نعم! وينبهك إلى أنك قد تجد اللذة في الحديث مع من يحسن معه الحديث، وفي التفكير في ما يحسن فيه التفكير، ولكنه كفيّل أن ينقص عليك لذة الحديث والتفكير بوخزة من هذه الوخزات الرهيقة الضئيلة التي يمسك بها في ناحية من نفسك،

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

فإذا أنت تقطع الحديث فجأة وتتصرف عن التفكير فجأة، كأنما ذكرت شيئاً كنت تتساه.

نعم! وينبهك إلى أنك قد تجد اللذة والمتاع في قراءة الكتاب القيم الذي يفذي عقلك وحسك وشمورك بما شئت من علم وأدب وفن، والذي تود لو تفتنى فيه فناء، وتمتزج به امتزاجاً، وتتسى لقراءته الزمان والمكان وما يشتمل عليه الزمان والمكان، ولكنه خليق أن يحول بينك وبين ما تريد من هذا، وأن يفسد ما تجد من لذة ومتاع بوخزة من هذه الوخزات التي يمس بها نفسك في ناحية من نواحيها، فإذا يدك تتحرك حركة آلية فتضع الكتاب، وإذا رأسك يتحرك حركة آلية فيرتفع إلى السماء، وإذا أنت واجم قد أنسيت ما كنت فيه، واشتمل عليك ذهول غامض واضح معاً، فيه انصراف عن كل شيء، وفيه شعور بهذا الشيطان الذي يفسد عليك كل شيء. وقد يكون هذا الشيطان أخفى من ذلك مكرراً وأدق حيلة، فهو لا يصرفك عن الكتاب ولا يلقيه من يدك ولا يحوّل عنه عينيك، ولكنه يسايرك في القراءة كأنه الرفيق، ويلقي أثناء ذلك كلمات وخواطر لا صلة بينها وبين ما تقرأ. فإذا هي تختلط بما تقرأ، وإذا هي تحول نفسك عما في الكتاب، وإذا أنت تقرأ بعينيك دون أن يصل شيء مما تقرأه إلى نفسك.

وقد يخلو هذا الشيطان في المكر بك والكيد لك، فلا يسايرك في القراءة، ولا يلقي في نفسك كلمات ولا خواطر، ولا

يصرفك عن الكتاب وإنما يصرف الكتاب عنك صرفاً، يثير بين الحروف والكلمات والسطور صوراً ومظاهر وألواناً من الخيال. تراها وأنت كاره لرؤيتها، وتحاول أن تخلص منها إلى هذه الحروف والكلمات والسطور فلا تجد إلى ذلك سبيلاً. فالكتاب بين يديك ولكنه بعيد عنك. والكلمات أمام عينيك ولكنها تفرُّ منك. هي تفرُّ وأنت تطلبها، وهذا الشيطان يلقي بينها وبينك غباراً من هذه الصور والمظاهر والخيالات. وقد يزدريك هذا الشيطان فلا يتكلف في تعذيبك جهداً ولا عناء، وإنما يداعبك في رفق ويلاعبك في استهزاء. فأنت في حديثك أو في تفكيرك أو في قراءتك، وإذا صورة ضئيلة يسيرة رقيقة تتراءى لك، فتتمر بين نفسك وبين ما تريد أن تقول أو تفكر أو تقرأ، ثم لا تلبث أن تنجلي عنك في سرعة البرق الخاطف، فإذا أنت تعود إلى ما كنت تقول وما كنت تفكر وما كنت تقرأ، ثم ما تزال بك مقبلة مدبرة، وسانحة بارحة. وملمة منصرفة. حتى يجهدك الشيطان ولم يصبه الجهد. ويشق عليك ولم تدركه المشقة، ويؤسك من الحديث والتفكير والقراءة وهو جالس غير بعيد، ينظر إليك في احتقار وازدراء، وهي سخرية واستهزاء.

كل هذا وجدته أيها الصديق العزيز منذ مضى بها القطار إلى قرينتها في الريف. ومازلت أجده الآن والسفينة تمضي بي إلى فرنسا متكلفة مع البحر فنوناً من السير. تجاهده جهاداً عنيفاً حين يهيج وتضطرب به أمواجه وتمصف به الريح، وتداعبه

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

دعابة حلوة حين يهدأ ويستقر ويعبث على سطحه النسيم. وكم منيت نفسي منذ أخذت أتهياً لهذه الرحلة أن أجد هذه اللذات المتباينة التي يجدها المسافرون في ما يكون بين السفينة والبحر من جد وهزل، ومن خصام ووثام. ولكن هذا الشيطان قد حال بيني وبين ما كنت أتمنى من ذلك، فأفسده عليّ إفساداً ونقصه تنقيصاً. ولو أنه ألقى بيني وبين ما أريد من ذلك حجياً صفاقاً وأستاراً كثافاً لهان الأمر وكان اليأس منه مريحاً، ولكنه يشرف بي على اللذة إشرافاً ويمعن بي فيها إمعاناً، ثم يقطع أسبابها قطعاً، ويصدني عنها أو يصددها عني أشد ما أكون كلفاً بها واندفاعاً إليها واستعداداً لاجتناء ما هيأت لي من ثمرات.

جنبك الله الندم أيها الصديق، وعصمك من أثقاله فإنها لا تحتمل، ومن آلامه فإنها لا تطاق.

ولست مع هذا كله مبفضاً لشيطان الندم، هذا الذي يمدبني، ولا منكراً عليه؛ فأنا أعطي الحق من نفسي وأقبل راضياً أو كارهاً ما ليس من قبوله بدّ. فأنا قد اقترفت الإثم، ولا بد من أن أحتمل أثقاله وأتجرع آلامه. والإثم عندي شجرة لا بد من أن تؤتي ثمرها إذا صادفت من الخصب ما يمكنها من النمو والإثمار. وإنما تصادف الخصب وأسباب النمو والإثمار حين تصادف نفساً كريمة حرة دقيقة الحس قوية الشمور. والندم عندي أية من آيات الكريم، وعلامة من علامات السمو، ومظهر من مظاهر الارتضاع عن الدنيات، ودليل من أدلة خصب النفس وجودة أصلها واستعدادها للخير وحسن البلاء فيه. وإني لأبفض

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

النفوس المجدبة التي لا تعرف ألماً ولا ندماً، والتي تموت فيها أشجار الآثام والخطايا، كما يموت النبات في الصحراء المحرقة المهلكة. واني لأبغض هذه النفوس ذات الخصب السيء الرديء، التي تفرس فيها أشجار الخطيئة والإثم، فلا تموت ولا تجف أعوادها، وإنما تثمر خطايا وآثاماً.

أترى أيها الصديق أني مفرور مسرف في الفرور! أتعزى عن الألم والندم بتزكية نفسي، وأكاد لا أكره ما أقترف من الآثام لأنه يشمرني بأني كريم النفس نبيل الطبع نقي الضمير؟ ولكن لا تنكر عليّ هذا الفرور، ولا تلمني في ما ألتمس لنفسي البائسة من ضروب التسلية وألوان المزاء. فلولا هذا الفرور لأهلكني ما أجد من الحزن، ولقضى عليّ ما أحس من الندم، ولدُفعت إلى اليأس المهلك دفعاً.

وإني لأعجب كيف انجلت عني غمرة الأمل وصُرِفْتُ صرفاً عن هذه الخيالات الحولة التي كنت أخلقها لنفسي خلقاً، وأستمين بها علي ما كنت مقدماً عليه من الطلاق حين كنت أتصور الحياة الجديدة في فرنسا، وما تدخر لي من لذات مختلفة لا تفنى. فأنا أحاول الآن أن أتصور هذا البلد الذي أنا مقبل عليه. فلا أرى إلا هذا البلد الذي أنا منصرف عنه.

أحاول أن أتمثل السربون فلا أرى إلا جامعتكم المصرية. وأحاول أن أتمثل رفاقي من الفرنسيين فلا أرى غيرك وغير أصحابك الشيوخ. ثم أحاول أن أتمثل جمال باريس فلا أرى إلا

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

القاهرة، وأحاول آخر الأمر أن أضلل نفسي وأعللها وأمنيتها
الألماني الآثمة. أحاول أن أتمثل المرأة الباريسية فلا أرى إلا
حميدة قائمة أمامي كهيئتها يوم كانت تستعد للرحيل في بكاء
متصل وصمت عميق.

مهما أفعل لأنظر إلى أمام فأنا مكره على أن أنظر إلى
وراء. فلا تلمني إذأ حين أعجز عن أن أخرج من نفسي، وعن أن
أتمس المزاء إلا فيها؛ فأنا أتلهى بهذا الفرور عن هذه الأهوال
المنكرة التي تأخذني من كل مكان وتسمى إلي من كل صوب.
ومالي لا ألم ولا أندم ولا أتجشم من ذلك أهوالاً وقد اقترفت
إثماً عظيماً حقاً؛ لقد كنت أخافك أيها الصديق فلم أصور لك
من هذا الإثم: إثم الطلاق، إلا أيسره وأهونه. لم أصور إلا ما
فيه من ظلم البريء والاعتداء على من لم يستحق الاعتداء، وقد
لقيت منك مع ذلك لوماً شديداً وإنكاراً عنيفاً، ونبواً كاد يفسد ما
بيننا من الود، فكيف لو صوّرت لك حقيقة الإثم الذي اقترفته!
وكيف لو كشفت لك عن وجهه الذي أخفيته عليك.

لقد أفلت منك أيها الصديق، ولقد بلغ الكتاب أجله، وقطعت
الأسباب بين حميدة وبينني، وبعدت بي الدار، فلا أمل الآن في
إصلاح ما فسد، ولا خوف الآن من أن تصدني عن الرحيل. الآن
أستطيع أن أظهرك على نفسي كلها... والآن أستطيع أن أنبئك
بإثمك كله، وأنا أعلم أنك ستحتقرني وستزدريني، وما يعنيني من
ذلك وأنا أحتقر نفسي وأزدريها!! فلن يصرفني احتقارك إياي

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

وازدراؤك لي، ولن يصرفني احتقاري لنفسي وازدراؤي إياها عن
أن أتمثل هذا الإثم القبيح وأملأ به خلوتي، وأتفنى بألامه هي ما
بينني وبين نفسي غناء قبيحاً منكراً بشعاً أكرهه أشد الكره ولكن
أمن فيه أشد الإمان.

لن يصرفني ازدراؤك لي وازدراؤي لنفسي عن هذا كله، وعن
أن أسجل نغمات هذا الغناء البشع في هذا الكتاب الذي أرسله
إليك.

لست ظالماً فحسب أيها الصديق، ولكني كافر للنعمة منكر
للجميل. فلم تكن حميدة زوجه فحسب، ولكنها كانت منعمة علي
منقذة لي.

رضيت بي بعد أن نبذني غيرها، ومنحتني ودها وحبها بعد
أن أعلن غيرها أنني لست أهلاً لودّ ولا حب.

إن لهذا قصة لم أنساها ولن أنساها، لأنها مزقت نفسي
تمزيقاً، وعذبت قلبي تمذيباً، وأذنتني هي أعز شيء علي وهو
الفرور والاعتداد بالنفس.

لقد كان أبواي كغيرهما من أهل الريف يعدّانني لمروس غير
حميدة. وكان أهل هذه المروس يعدّون ابنتهم لي منذ نشأنا
صبيين. وكانت الفتاة ابنة عمي، ولم تكن جميلة ولا وسيمة،
ولكنها على ذلك كانت محببة إلي أثيرة عندي، لكثرة ما سمعت
منذ الطفولة من حديث الزواج.

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

ولكنك لم تر وجهي ولا شكلي أيها الصديق. وأكبر الظن أنك عرفت من صوتي أنني قبيح الشكل دميم الوجه بعيد كل البعد عن أن أروق العذارى، وأرضي أهواء النساء. ولم أكن أرى ذلك في نفسي ولا أعترف به عليها. ومتى رأيت رجلاً قبيحاً دميماً يؤمن بأنه قبيح دميم! ولكن فهيمة كانت ترى ذلك وتتأذى به وتنفر منه أشد النفور. وكانت تكره أن يتحدث إليها أهلها وأترابها بأمر الزواج، ولكنها لم تكن تظهر الكره وتعلن الإنكار، حتى إذا جد الجد وتقدمت بها وببي السن، وأخذ أهلنا يفكرون ثم يتحدثون في أمر الخطبة، جهرت بالرفض جهراً وأعلنت الإباء إعلاناً، وخرجت في ذلك عما هو مألوف من أمثالها من فتيات الأسر في الريف، فنبت على أمها نبواً وامتنعت على أبيها امتناعاً، وأعلنت أنها تؤثر الموت على أن تكون زوجاً لهذا الشاب الدميم.

وتصور أنت موقع هذا الرفض من نفسي وأثره من قلبي وفي ما كان يملأ نفسي وقلبي من غرور. ثم تصور أن حميدة كانت أبرع من ابنة عمي جمالاً وأكثر منها مالاً، وأذكى منها قلباً وأحسن منها مستقبلاً، وأنها مع ذلك سمعت رفض فهيمة فأنكرته وأظهرت إنكارها، وتمعدت أن يصل حديث هذا الإنكار إلى أهلي ثم إليّ، وكان هذا الإنكار وما أظهرت من أمره وسيلة المودة ثم وسيلة الخطبة ثم وسيلة الزواج. وما زالت فهيمة تنتظر الزوج إلى الآن، ولكن حميدة كيف تكافأ بالكفر، وإلى الجميل كيف يكافأ بالمعقوق! ومع ذلك فإنني لأنظر الآن في المرأة أمامي فأستكشف في وجهي وخليقي من الدمامة والقبح ما ينهض بألف

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

عذر وعذر لابنة عمي، وما يثقلني بألوان الندم حين أفكر في ما
جزيت حميدة به من العقوق.

أتعرف أنني أسافر على سفينة إنجليزية؟ فقد تهيأت لهذه
السفينة وأنبأني المنبثون بأن المسافرين على السفن الإنجليزية
إذا استقبلوا المساء لبسوا له لباساً خاصاً لا يقبلون في غرفة
المائدة بدونه، فاتخذت لنفسني هذا اللباس واتخذته على أحسن
ما يتخذه المترفون، فلما أقلمت السفينة وأقبل المساء عمدت إلى
هذا اللباس فدخلت فيه، واتخذت ما يتصل به من زينة، وكانت
صورة حميدة لا تفارقني، وكانت صورة فهيمة تعرض لي من
حين إلى حين، فلما تهيأت للخروج من غرفتي سمعت فهيمة تتكر
قبحي ودمامتي، ورأيت حميدة تبسم لي وتشير إلي، هنالك نظرت
في المرأة فرأيت، ثم استحييت ثم بكيت، ثم نزعتم هذا اللباس
نزعاً، ولم أخرج إلى غرفة المائدة هذا المساء، ثم أصبحت
فتكلفت المرض وأخذت نفسي بأن أكل في غرفتي، وأقسمت لا
أغشى غرفة المائدة ولا مجالس السفينة اجتناباً لسخرية النساء؛
فما أرى منذ الآن أنهن جميعاً فهيمة.

أترى أي حد انتهى الاضطراب بمقل صديقك وبما له من
حس وشعور؟ ولن تعلم حميدة من هذا شيئاً، ولن تعرف حميدة
أنني أجد من الندم على فراقها ما يفسد علي حياتي إفساداً،
ويوشك أن ينتهي بي إلى شر ما ينتهي إليه الأحياء.

ليتني سمعت لك! وليتني فتمت بما كنت أنعم به في مصر!

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

فما أظن إلا أنني مقدم على سراب أحسبه ماء، حتى إذا بلفته لم أجده شيئاً.

وأخرى لم تعرفها أيها الصديق، ولا بد لك من أن تعرفها لتعلم أنا مكرهون على أكثر ما نأتي من الأمر، وأن اختيارنا لعب كله وغرور كله. فقد كنت أحسب أن الناس لا يعلمون من أمري إلا ما أريد أن يعلموا فأنبئهم به وأظهرهم عليه. وكنت أظن أن أكثر من عرفتهم في القاهرة وعرفوني بجهلون أمر زوجي جهلاً تاماً. وكنت واثقاً بأنني أستطيع أن أكذب على الجامعة إن أردت، وأن أزعج لها أنني أعزب وأن أمسك على زوجي وأسافر إلى أوروبا لا أصطحبها. وكنت مع ذلك حريصاً أشد الحرص على ألا أكذب الجامعة. ولم يكن يدفعني إلى هذا إلا حب الصدق وإيثار الخلق والظن بكرامة العلم وطلابه على الكذب الظاهر والخفي. وكنت أحمد من نفسي هذا الإقدام على التضحية، وهذا النصح للجامعة، وهذا الإلحاح في أن أكون صادقاً معها في السر والعلانية معاً.

وكثيراً ما وجدت في هذه التضحية التي كنت أحبها وأرضى عنها مظهراً من مظاهر الفرور، ومصدراً من مصادر المعجب والته والإكبار للنفس. وكنت أقول لنفسي إذا خلوت إليها: ليس كل الناس قادراً على أن يبلغ من حب الصدق وإيثاره هذا الحد. فأنا إذاً شخص نادر وفرد ممتاز. ومن حق الجامعة أن تفخر منذ الآن بخلقها، كما أنها ستفخر بعد قليل بجدي واجتهادي وكفايتي في البحث وقدرتي على الدرس والتحصيل.

وكان هذا الخاطر الجميل يملؤني ثقة بنفسني وإكباراً لها ورضا عنها. ولعل ذلك كان يظهر في ما كنت آتي من حركة وما كنت ألقى من جمل. بل لعل هذا كان يظهر في ما كان وجهي يأخذ أحياناً من الصور والأشكال. ولكن لا تسل عما أدركني من الدهش، وما أصابني من خيبة الأمل، وما ملأ قلبي ذات يوم من الحيرة والاضطراب حين دعاني سكرتير الجامعة لأزوره. فلما لقيته لم يظهر الراحة للقائي، ولم يتكلف الأنس بمقدمي. كما كان قد تمود من قبل، وإنما لقيني فاتراً وحدثني بصوت متكسر، ثم لم يلبث أن أظهر من التجهم والتكبر والاستطالة ما أنكرت، ثم لم يلبث أن ألقى عليّ حديثه قصيراً متقطعاً سريعاً كأنه الصواعق يتلو بعضها بعضاً، وقد اتخذ صورة الأستاذ ولهجته، وصوت الواعظ الغلي في التأنيب، فما ينبغي لطالب المعلم أن يكذب وهو القدوة، وما ينبغي له أن يفش وهو الأسوة وقد كانت الجامعة مخدوعة لي. فالآن وقد تبين لها الحق وانكشف لها السر تستطيع الجامعة أن تزهد في زهداً، وأن تتصرف عني انصرافاً. وبين الذين تقدموا للامتحان ونجحوا فيه من يستطيحون أن يشغلوا مكاني في البمثة، وأن يطلبوا المعلم صادقين غير كاذبين، ومخلصين غير متورطين في الفش ولا متكلفين للخداع. والجامعة تؤثر ألف مرة ومرة أن تعدل عن إرسال البموت، وأن تفلق أبوابها إغلاقاً في سبيل الطلاب الذين يختلفون إليها على أن تهين للأمة أساتذة يقيمون حياتهم العلمية على الكذب والفش، وعلى الخداع والنفاق.

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

ولست أخفي عليك أنني ضقت بهذا الواعظ الشرثار، وتمجلته
إتمام الحديث والانتهاه إلى ما يريد. فلم يتردد في أن يلقي إلي
ما عنده إلقاء فيه كثير من الازدراء. قال: زعموا أنك متزوج يا
سيدي، وقد زعمت لنا أنك حر طليق.

هنا أريد أن أستغفرك أيها الصديق، وما أدري أتغفر لي؟
فقد أسأت بك الظن واتهمت بك بأنك أقدمت على الوشاية بي
مخلصاً حسن النية تريد أن تحول بيني وبين الظلم، كما أقدمت
أنا على تطبيق حميدة مخلصاً حسن النية أريد أن أفرغ للعلم وأن
أتجنب الخيانة والإثم.

نعم! أسأت بك الظن واتهمت بك، ورأيت ما بيننا من الصلات
وقد تصرم وتقطعت أسبابه، وأحسست شيئاً من الحزن لكذب
ظني بك وخيبة أمني فيك، وكان هذا كله سريعاً مسرفاً في
الإسراع لم أكد أتنبه إليه، ولم يتنبه سكرتير الجامعة إلى أن
شيئاً غيره وغير حديثه كان يشغلني. فقد أخذت أسأله من زعم
لك هذا السخف؟ ومن ألقى إليك هذا الهديان؟ وكيف تسمع
الجامعة لكل ما يلقى من القول إليها وكيف تصدق كل ما يرفع
إليها من الحديث! وما ينبني لك أن تلومني هذا اللوم، وتؤنبني
هذا التأنيب! قبل أن تتحقق أنك تتهمني بما لا أستطيع له دفماً،
وتأخذني بما لا أجد منه مخرجاً.

قال الرجل: مهلا يا سيدي، فليس يخفي عنك ما أنت فيه

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

منذ الآن من التجاء إلى الجدار وشفف بالمرء؛ فقد ألقى إلينا أنك متزوج. ثم ألقى إلينا اسم الأسرة التي أنت مصهر إليها، فلم نأخذ بالمظنفة ولم نطمئن إلى الريبة، وإنما بحثنا واستقصينا وسألنا حتى تبين لنا لحق وعرفنا أنك قد خدعتنا وضلللتنا تضليلاً. وما دعوناك اليوم إلا لنقطع ما بينك وبيننا من صلة فنرد إليك ما أخذنا منك، ونسترد ما أخذت منا.

قلت وقد ثاب إلي عقلي كله، وحرصني على البعثة: قد كان ذلك ممكناً منذ أيام، أما الآن فلا. ثم قدمت إليه صك الطلاق. فلم يكذب ينظر فيه حتى تغيرت حاله ممي تغيراً تاماً، وإذا هو يصفحني مكبراً لي معجباً بي. ألم أقدم على عمل خطير؟ ثم تبسط ممي في الحديث وقد ضم الصك الذي دفعته إليه إلى ما ينبغي أن يحفظ من أوراقه عنده، وما زلت أتلف له وأمكر به، حتى أطلعني على ذلك الكتاب الذي ارتفع إليه بالنميمة وأنباء بزواجي. فقرأت ويا شر ما قرأت! وعلمت ويا شر ما علمت! علمت أن صاحب هذا الكتاب صديق لي متصل بي، يتكلف المودة ويظهر النصحية والإخلاص، ولكنني علمت أنك لست صاحب هذا الكتاب ولا مقترف هذه الوشاية.

وخرجت من الجامعة راضياً ساخطاً ومسروراً محزوناً. راضياً لأن البعثة لم تفلت مني، وراضياً لأنك أنت لست الواشي بي، وساخطاً لما انطوت عليه جنوب الناس من المكر والخداع، ومن الكذب والنفاق، ومن الحسد الذي يفسد عليها كل شيء.

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

فلم يكن لهذا الصديق الذي وشى بي طمع في البعثة ولا طموح إليها، وإنما هو الحسد وحده. رأى أنني سأسافر إلى حيث لا يستطيع ولا يأمل أن يسافر. ورأى أن حالي قد تتغير وأن حياتي قد تصلح، وأني قد أرقى إلى منزلة لا يستطيع أن يطمع فيها ولا أن يسمو إليها، فكره ذلك وضاق به، ثم جد في أن يحول بيني وبين ذلك، وأن يمسكني في المنزلة التي أمسكته فيها الظروف، فأبقي مثله خاملاً متواضعاً محدود الأفق من البيت إلى الديوان، ومن الديوان إلى البيت، والقهوة بين ذلك أحياناً.

نعم أيها الصديق! خرجت راضياً وساخطاً، وأنا لا أفكر حين كنت أحس الرضا أو أجد السخط إلا في شيء واحد، وهو أن كيداً كان يكادني فخلصت منه، وأن مكرراً كان يمكر بي فانتصرت على أصحابه ورددت سهامهم في نحورهم. ثم هبط بي القطار إلى البحر، وأخذت السفينة تمضي بي إلى ما وراء البحر، وأخذت صورة حميدة تلزمني وتلح عليّ، وأخذ الندم يثير في نفسي من الخواطر ما يثير، وإذا أنا الآن أسأل نفسي عن هذه الوشاية التي أنكرتها: ألم تكن خيراً قد صرف عني وحيل بيني وبين الانتفاع به؟ فلو قد نجحت هذه الوشاية وحيل بيني وبين البعثة لكان هذا الإخفاق أول العقاب على ما جنيت من ذنب، ولكان نذيراً بما كان ينتظرني من الشر إن تمت على ما بدأت من الظلم، ولكان خليقاً أن يردني إلى حميدة أو أن يرد حميدة

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

إليّ. ولكن الله لم يرد إلا أن يقدم بين يدي هذه الرحلة نذيراً بما ينتظرنني فيها من الآلام، وطمينة لما ينتظرنني وراء البحر من الشر.

وصدقني أيها الأخ العزيز إنني لأدنو الآن من فرنسا خائفاً وجلاً شديد التشاوم. لا أنتظر خيراً ولا نجاحاً، وإنما أنتظر شراً كثيراً وإخفاقاً شنيعاً. ولو طاوعت نفسي لما استقررت في مرسيليا إلا ريثما أخذ السفينة التي تردني إلى مصر. ولكن ما يقول الناس؟ وماذا أقول لنفسي؟ وكيف ألقى غيرك من الأصدقاء المخلصين ومن الأعداء الشامتين؟ وماذا أقول لأهلي وماذا أقول لحميدة؟ أمضي في فراقها؟ ولماذا وأنا لم أفارقها عن قلبي ولا عن بغض؟ أم أعود إليها نادماً بانساً معتذراً مستغفراً؟ ولكن أسمع لي؟ أتمطف علي؟ ثم ما نفع هذا الحديث الذي هو بالهذيان أشبه منه بالجد؟ إن السفينة لتمضي أمامها لا تلوي على شيء، ولن تقف حتى تبلغ مرسيليا. ولو أردت أن أوقفها لما بلغت من ذلك شيئاً مهما يكن إلحاحي وصياحي، ومهما أتخذ من وسيلة عند القبطان. وإنما حياتنا كهذه السفينة تمضي بنا إلى حيث يريد القضاء لا إلى حيث نريد. ومهما نلح، ومهما نصح، ومهما نتخذ من وسيلة، فلن نوقف حركتها ولن نردها إلى وراء، ولن نتقي الانتهاء إلى هذه الغاية التي رسمها لنا القضاء.

فلامض إذاً إلى حيث تريد السفينة أن تنتهي بي. ومن يدري! لملي أعود إليك بعد حين ولم أر باريس، ولم أختلف إلى

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

السربون، ولم أشهد أندية اللهو والمتاع. ومن يدري! لعلني لا أعود إليك حتى آخذ من هذا كله بحظ. وكل ما أستطيع أن أقطع به الآن هو أن هذه السفينة التي تعبر بي بحر الروم، ستوفي بي من بعد بحر إلى بحر، كما يقول مسلم بن الوليد. ولكن البحر الذي ستوفي بي إليه ليس هذا ولا ذاك من أولئك الأجواد الذين كانوا يفتنون الثمراء، وإنما هو بحر آخر عريض لا حد لمرضه، عميق لا آخر لعمقه. هو بحر هذه الحياة الأوروبية المملوءة باللذة والألم، المغممة بالخير والشر. فليت شمري أرسب فيه أم أطفوا عليه؟

الآن أحس أنني قد أطلت عليك. وإنما يذكرني بك ويشير في نفسي الإشفاق عليك من الإطالة هذه الحركات التي أسمعها تكثر من حولي في الغرف المجاورة وفي الطريق أمام هذه الغرف: فقد فرغ السفر من لهوهم ورقصهم وعادوا إلى غرفهم يقضون فيها ما بقي لهم من الليل.

وداعاً يملؤه الحب والود والحزن أيها الصديق! فما أدري! لعلني لا أكتب إليك بعد هذا الكتاب.

عصفور من الشرق توفيق الحكيم (1938)

توفيق الحكيم (898 - 1987) كاتب وأديب مصري، من رواد الرواية والكتابة المسرحية العربية ومن الأسماء البارزة في تاريخ الأدب العربي الحديث.

تمد مسرحيته المشهورة أهل الكهف في عام 1933 حدثاً هاماً في الدراما العربية، فقد كانت تلك المسرحية بداية لنشوء تيار مسرحي عرف بالمسرح الذهني. بالرغم من الإنتاج الغزير للحكيم فإنه لم يكتب إلا عدداً قليلاً من المسرحيات التي يمكن تمثيلها على خشبة المسرح، فمعظم مسرحياته من النوع الذي كُتب ليُقرأ فيكتشف القارئ من خلاله عالماً من الرموز التي يمكن إسقاطها على الواقع في سهولة لتسهم في تقديم رؤية نقدية للحياة والمجتمع تتسم بقدر كبير من العمق والوعي.

أرسله والده إلى فرنسا ليلتعد عن المسرح ويتفرغ لدراسة القانون، ولكنه وخلال إقامته في باريس لمدة 3 سنوات أطلع على فنون المسرح الذي كان سُفله الشاغل، واكتشف الحكيم

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

حقيقة أن الثقافة المسرحية الأوروبية بأكملها أسست على أصول المسرح اليوناني، فقام بدراسة المسرح اليوناني القديم كما اطلع على الأساطير والملاحم اليونانية العظيمة.

ولد توفيق إسماعيل الحكيم بالإسكندرية عام 1897 لأب مصري من أصل ريفي يعمل في سلك القضاء في قرية الدلنجات إحدى قرى مركز إيتاي البارود بمحافظة البحيرة. وكان يمدُّ من أثرياء الفلاحين، ولأم تركية أرستقراطية كانت ابنة لأحد الضباط الأتراك المتقاعدين.

غادر إلى باريس لنيل شهادة الدكتوراه (1925 - 1928). وفي باريس، كان يزور متاحف اللوفر وقاعات السينما والمسرح، واكتسب من خلال ذلك ثقافة أدبية وفنية واسعة إذ اطلع على الأدب العالمي وفي مقدمته اليوناني والفرنسي. وانصرف عن دراسة القانون، واتجه إلى الأدب المسرحي والقصص، وتردد على المسارح الفرنسية ودار الأوبرا، فاستدعاه والداه في سنة 1927، أي بعد ثلاث سنوات فقط من إقامته هناك، فقاد الحكيم صفر اليدين من الشهادة التي أوفد من أجل الحصول عليها. عاد سنة 1928 إلى مصر ليعمل وكيلاً للنائب العام سنة 1930، في المحاكم المختلطة بالإسكندرية ثم في المحاكم الأهلية. وفي سنة 1934 انتقل إلى وزارة المعارف ليعمل مفتشاً للتحقيقات. ثم نُقل مديراً لإدارة الموسيقى والمسرح بالوزارة عام 1937، ثم إلى وزارة الشؤون الاجتماعية ليعمل مديراً لمصلحة الإرشاد

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

الاجتماعي. استقال في سنة 1944، ليعود ثانية إلى الوظيفة الحكومية سنة 1954 مديراً لدار الكتب المصرية. وفي نفس السنة انتُخب عضواً عاماً بمجمع اللغة العربية. وفي عام 1956 عيّن عضواً متفرغاً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بدرجة وكيل وزارة. وفي سنة 1959 عيّن كمندوب مصر بمنظمة اليونسكو في باريس. ثم عاد إلى القاهرة في أوائل سنة 1960 إلى موقعه في المجلس الأعلى للفنون والآداب. عمل بعدها مستشاراً بجريدة الأهرام ثم عضواً بمجلس إدارتها في عام 1971. تُرجم العديد من أعماله إلى كثير من اللغات الأجنبية وحصل على عدة جوائز.

أعماله:

- عودة الروح
- يوميات نائب في الأرياف
- الأيادي الناعمة
- عصفور من الشرق
- بجماليون
- الملك أوديب
- سليمان الحكيم
- عودة الوعي
- بنك القلق

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

الرواية:

صدرت رواية «عصفور من الشرق» عام 1938 وترجمت ونشرت بالفرنسية عام 1946. وهي تعتبر، مع رواية «أديب» لطف حسين بداية روايات المفتربين، نرى فيها بطل الرواية قد حمل كلّ عاداته المحلية معه إلى بيئته الجديدة في الغربية، أي أن انتقاله إلى أوروبا انتقال مكاني وليس في النظرة إلى الحياة.



نزل «محسن» الدرج؛ ليخرج كمادته إلى الطريق، يستنشق هواء ذلك الصباح الجميل، فرأى باب حجرة صديقه «إيفان» مفتوحاً، وسمع سعاله، فمطف عليه، وضرب الباب مستأذناً... فأذن له ودخل الفتى، فوجد الروسي جالساً على سريره، أصفر الوجه، بين يديه كتب ثلاثة، فقال له:

– كيف حالك اليوم يا مستر «إيفانوفتش»؟...

– بخيراً...

قالها الرجل على نحو غريب، عجب له الفتى، ونظر بطرف عينه إلى الكتب، وقرأ في دهشة:

– «التوراة»، «الإنجيل»، «القرآن»!...

ثم التفت إلى «إيفان» وقال:

– عجباً!... إنك في ما أعلم لا تؤمن بشيء...!

فقال الروسي: كالمخاطب لنفسه:

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

- أريد أن أعرف: كيف استطاعت هذه الكتب الثلاثة أن تعطى البشرية راحة النفس، وأن تفرها في ذلك الاطمئنان؟... نعم!... إنني لا أومن بشيء، وإنني أرى أحياناً الموت دانياً مني وفي يده «خرقة» ليمحوني كما يمحو رقماً كتب بالطباشير فوق لوحة سوداء!... فأحتقر نفسي، وأزدري كل حياة إنسانية... أه!... ما أسعد أولئك المؤمنين، الذين يرون الموت مرحلة إلى حياة أخرى جميلة!... إنهم لا شك ينظرون إلى الموت: كأنه عربة «بولمان» في قطار سريع، يذهب بهم إلى نزهة «آخر الأسبوع»... إن مثل هؤلاء لا يمكن أن يروا الحياة الإنسانية إلا أنها شيء عظيم... لأنها تشغل الكون دائماً، طول الخلود، أنهم لا يستطيعون أن يزدري هؤلاء الناس أنفسهم!...

أه!... ثق أنني أريد «فالرغبة» والإرادة لا تموزاني... ولكن... أمن الممكن لمثلي الآن أن يؤمن بالجنة والنار: كما كان يؤمن بها المسيحيون في عصر الشهداء!... إنهم كانوا يتقدمون للذبح، ويلقى بهم إلى أنياب السباع وهم يبتسمون، راضين مقتنعين أن أبواب الجنة مفتوحة لاستقبالهم، مصفين إلى صوت المسيح يقول لهم من علي: «طوبى لكم؛ إذ عثروكم، وطرردوكم، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين، افرحوا!... وتهللو؛ لأن أجركم عظيم في السماوات!».

ومثل إيمان المسلمين في عهد النبي فقد حدث في موقعة «بدر»، التي نشبت بين المسلمين وأعدائهم من قريش، أن مسلماً

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

ترك القتال وانتحى يأكل بلحاً فسمع النبي يقول: «لا يقاتل اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً، إلا أدخله الله الجنة...» فمذف الرجل بالبلح من يده، وقام يصيح: «أفما بيني وبين دخول الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟!...» ثم رمى نفسه في أحضان الأعداء...

نعم، يخيل إلي أن مثل هذا الإيمان لا يمكن أن يعرفه الغرب اليوم!... إن الشرق يوم أعطى الغرب هذه الأديان، إنما أعطاهم على النحو الذي ذكرنا، فتسلمها الغرب، وألبسها أردية موشاة بالذهب، ووضع على رؤسها التيجان المرصعة بالماس، وأقبضها صولجانات الجاه والسلطان والجبروت الأرضي!... إن الكنيسة في أوروبا، كانت - في يوم ما - أعظم مؤسسة مالية، وإن نظامها الرأسمالي لأدق نظام... وإن ثروتها الطائلة لتسند ظهر أقوى البيوت المالية، وتقوضها إذا شاءت في طرفة عين. فأين ذهبت كلمة المسيح؟! «ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله: لأن دخول جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله!...».

وأين ذهبت كلمة النبي محمد؟... «إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة، فاخترت لقاء ربي والجنة!...» ثم قوله أيضاً: «اللهم توفني فقيراً، ولا توفني... واحشرنني في زمرة المساكين!...».

نعم لا شك أن المسؤول عن انهيار مملكة السماء هم رجال الدين أنفسهم!.. أولئك أنفسهم!... أولئك الذين كان ينبغي لهم

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

أن يتجردوا من كل متاع الأرض، ويظهروا في زهدهم بمظهر المنتظر حقاً لنعيم آخر في السماء... لكننا نراهم هم أول من ينعم بمملكة الأرض، وما فيها؛ من أكل طيب، يكتزون به لهماً، وخمر ممتق، ينضج على وجوههم الموردة، وتحت إمرتهم: السيارات يركبونها، والمرتبات يقبضونها!... إنهم يتكلمون عن السماء، وكل شيء فيهم يكاد ينطق بأنهم يرتابون في جنة السماء، وأنهم متكالبون على جنة الأرض، هؤلاء هم وحدهم الذين شككوا الناس في حقيقة مملكة السماء!... إن كل ما بناه الأنبياء: بزهدهم الحقيقي، وجوعهم، وعريهم، مما أقنع الناس بأن هؤلاء الرسل إنما هم حقاً ينتظرون شيئاً في العالم الآخر؛ جاء هؤلاء فهدموه!... وكانوا هم أقوى دليل على كذب مملكة السماء، وخير دعاية لمملكة الأرض!... وأنسوا الناس بانفماسهم في هذه الحياة، أن هنالك شيئاً آخر غير هذه الحياة!...

– صدقت في كل هذا ما مسيو «إيفان»... إن مسلك رجال الدين قد يشكك عامة الناس... لكن أنت... من كان مثلك على هذه الثقافة وهذا العلم... إنك تستطيع أن تقيم إيمانك على لباب الكتب السماوية وحدها، بغير حاجة إلى أحد...

– وهذا ما أردت أن أفعله أيها الصديق، منذ ليال وأيام... غير أنني... ينبغي أن أصارحك... لم أستطع... لم أستطع مطلقاً...

– لم أستطع ماذا؟...

- أه... لقد فسدت في رأسي كل تلك الصور الجميلة للحياة الأخرى؛ كما تفسد زجاجات الصور «الفوتوغرافية»، عندما ينفذ الضوء إلى حجرتها السوداء... لست أدري سبباً لذلك... يخيل إلي أنها الحضارة الأوروبية الحديثة. لا تسمح للناس أن يمشوا إلا في عالم واحد... إن سر عظمة الحضارات القديمة أنها جعلت الناس يعيشون في عالمين... لقد عرفت تلك الحضارات «العلم»، و«العلم التطبيقي»: فالحضارة التي تشيد الأهرام، لا يمكن أن تجهل العلوم النظرية والتطبيقية، ومع ذلك فإن ذلك العلم لم يفسد من الرؤس زجاجات الصور، التي تمثل الحياة الأخرى - تلك الحضارات أسميها أنا «الحضارات الكاملة»، ولكن آسيا وأفريقيا ارتبطتا بالزواج، في طور من أطوار التاريخ، وأنتجتا مولوداً جديداً: هذه الفتاة الشقراء - التي تسمى «أوروبا» - جميلة رشيقة ذكية؛ لكنها خفيفة أنانية، لا يعنىها إلا نفسها، واستعباد غيرها...

وهنا قاطمه «محسن»، قائلاً كالمخاطب نفسه:

- «أنانية» لا تعرف غير حياة الواقع، ولا يههما شقاء الغير، ولا تحب الحياة إلا في... الحياة...

فمضى الروسي يقول، دون أن يفهم ما جال في خاطر الفتى:

- نعم، نعم!... هي كذلك حقيقة... «إن هذه الفتاة ترى المجد كله في شيء واحد: تضع الأصفاذ في أرجل البشر، وبدأت أول ما بدأت بأبويها: أفريقيا وآسيا... أنكرتهما، وحبستهما... وانطلقت في الحياة، لا يحدها حد، ولا يقوم لها شيء... إلى أن

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

انتهى بها المطاف في بيت من بيوت الليل؛ تديره، وتشاهد فيه شجار السكارى، يحطمون الكراسي والكؤوس... إنني أخشى أن تكون أوروبا موشكة على دفع الإنسانية إلى هوة... إنها لتثوب أحياناً إلى رشدها، وترى مصيرها؛ فنقع في أزمة من أزمت الضمير: إنها لتستيقظ فيها الروح أحياناً فتشك في نفسها، ويخيل إليها أن مدينتها الخلافة ليست إلا بهرجاً، وأن علمها الحديث كله - وهو وحده الذي تتيه به على البشرية، في مختلف تاريخها ليس - من حيث القيمة المملىة - غير «لعب» من صفيح وزجاج ومعدن؛ قدمت للناس بمض الراحة في أمور معاشهم، ولكنها أخرجت البشرية، وسلبتها طبيعتها الحقيقية، وشاعريتها، وصفاء روحها... إن السكك الحديدية والطائرات قد أعطتنا السرعة وتوفير الوقت، ولكن ما فائدة ذلك؟... ولماذا السرعة؟... ولماذا توفير الوقت؟... كأنما قد هبطت علينا شياطين تلهب ظهورنا بالسياط... ما نحن إلا قطرات ماء في نهر الحياة... ما حظنا من سرعة التيار، واندفاعه إلى البحر؟... إنما حظنا الأكبر: في التمهّل حول الأعشاب النابتة، والسكون عند شواطئ الجزر، يداعبنا النسيم... من الذي استفاد من هذه السرعة الملمونة غير قبضة من النهمين. جمموا في أيديهم الثروات، وسموا بالرأسماليين... أما أنا وأنت وبقية الأدميين الوادعين، فقد خسرنا تلك الرحلات الطويلة، على ظهور الجياد أو الإبل؛ ننزل في كل مرحلة، ننعم بالطبيعة في أشكالها المختلفة، وفي أوقاتها المختلفة... نعم كسبنا السرعة، ولكن خسرنا ثروة النفس التي تنمو باتصالها المباشر بالطبيعة، إنما

اليوم نفرح بكلمة السرعة، وتنسى أنها ليست سوى إغفاءة، نقضيها في عربة قطار. يرقى بنا في نفق مظلم، ويوصلنا حقيقة في وقت قليل إلى حيث أردنا. ولكننا لا نعرف بعد ذلك ماذا نصنع بالوقت الباقي؛ فننفقه في الحمق والسخف... إن الطبيعة لتنتقم، وإن كل وقت يسرق منها لا نجد له سوقاً ننفقه فيها، غير سوق النخاسة الخلقية، والانحطاط الأدمي... كذلك «السينما» - كما يقول «دوهاميل» - لا تعطينا غير الطبيعة محفوظة في الملب، أو قصصاً سخيفة تؤثر في أعصابنا تأثير الأفيون «والراديو» وما يقدمه من قشور المعلومات وردية - الموسيقى... كل شيء في هذه المدنية الحاضرة يتأمر على قتل الفضائل الإنسانية العليا، وصفاتها الأدمية السامية، وقواها الطبيعية الكامنة؛ بتعميدها التراخي والكسل، باسم «الراحة الحديثة»؛ حتى نامت كما نرى النفوس والأرواح، وأصبحنا أمام ناس مصنوعين من «الألومنيوم». مصيبة المدنية الأوروبية نزلت منذ استقرار الصناعة الكبرى... هذه الصناعة التي شطرت المجتمع الأوروبي إلى شطرين: فئة قليلة كل همها جمع المال، وفئة كبيرة كل همها أن تقدم هذا المال في مقابل لقمة... الفئة الأولى لا دين لها إلا الذهب، والفئة الثانية لا دين لها إطلاقاً ولا شخصية ولا نفس؛ لأنها آلات صماء... إن نظام تقسيم العمل قد أدى إلى أن صنع الدبوس الواحد أصبح محتاجاً إلى ثماني عشرة عملية مختلفة؛ كما يقول «دم سمي»، وأن العامل الواحد قد يقضي حياته كلها في صنع رأس الدبوس فقط، وآخر في صنع جزء آخر منه؛ كذلك الحال في صناعة الأحذية؛

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

فهي في بعض المعامل الأمريكية تقسيم إلى أكثر من مائتي عملية. يخص العامل الواحد منها جزء واحد من عشرة أجزاء: كعب الحذاء مثلاً... معنى هذا أن العامل لم تبق له حتى تلك اللذة الفنية القديمة، التي كان يحسها ويرتاح إليها، وهو يصنع بيديه حذاء كاملاً في حانوته الصغير. نعم!... حتى متعة الخلق الكامل، التي كانت تشمره بأدميته قد ذهبت، وأصبح الآن شأنه شأن المخرطة أو المطرقة أو المنشار: يخرط، أو يطرُق، أو ينشر، جزءاً صغيراً مميّناً بالذات من هذا الدبوس أو ذاك الحذاء، وهو يكرر هذه العملية التافهة كل حياته!... ما الفرق بينه إذاً وبين الآلهة!... لا فرق؛ إن الرجل ما زال يحس أدميته بالنسبة للشيء الذي يصنعه، ويخلقه بيديه؛ أنية من الفخار كان، أو حذاء، أو رداء منسوجاً على نول، أو قطعة أرض يزرعها، ويجني ثمارها!... إنه لم ينقلب بعد - لحسن حظه - منشاراً آدمياً، أو مخرطة بشرية!... استمع إلى الكاتب الإنجليزي «الدس هكسلي» يصف أوروبا الحديثة: «إن أسلوب الحياة في المصير ليدعو إلى الاشمئزاز؛ ذلك أن تطور النظام الصناعي قد أدى إلى نمو فجائي لتمداد أوروبا؛ ففي نحو قرن واحد تضاعف سكانها، ثم جاء بعد ذلك التعليم الابتدائي للجميع، فنتج عنه ظهور جمهور هائل من القراء، ونشط لهذا الجمهور أصحاب الأعمال، فأنشأوا صناعة جديدة: هي صناعة «مادة القراءة»!... هذه «المادة المقروءة» لم تكن - ولا يمكن أن تكون مطلقاً - غير بضاعة من النوع الرديء، جداً!... لماذا؟... تلك مسألة حسابية: إن عدد الكتاب، أصحاب

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

الموهبة الفنية، قليل دائماً... ومن هنا نرى أن الجانب الأكبر للأدب المعاصر، هو دائماً غاية في الرداءة، ولما كان الأوروبيون قد اتخذوا عادة القراءة طول الوقت - وتلك رذيلة! كمادة تدخين «السجاير»، بل ربما كتدخين «الأفيون» أو تماطي «الكوكايين» - فإن أوروبا اليوم تتغذى بأدب من الطبقة العاشرة. وهذا كله حدث جديد؛ إذ في الماضي لم يكن الناس يعرفون غير عدد قليل من الكتب حقيقة، لكنها كانت من أجود نوع، ولأضربن مثلاً بالإنجليزية: فلقد كانوا، إلى عصور قريبة، يشبون على «الكتاب المقدس» وعلى رحلة الحاج لـ «جون بانيان»... كتابان لا نظير لهما في نبل المعنى وصفاء الأسلوب... أما اليوم فإنهم يشبون على «الدليي إكسبريس» وعلى المجلات والقصص البوليسية؛ فالتعليم العام كان له هذه النتيجة السيئة: فهو بدلاً من أن يجعل الناس يقرأون قليل الآثار الخالدة، قد جعلهم يقرأون دائماً حماقات مخجلة... إن الفن القديم قد يقصر أحياناً عن الإجابة؛ لأنه ساذج أو ناقص، ولكنه لم يكن يوماً قط مبتذلاً. لماذا؟... لأن الأقدمين لم تهياً لهم الأسباب أن يكونوا مبتذلين!

فأطرق «محسن» قليلاً ثم قال:

- نعم، ربما كان هذا صحيحاً... إن الأعرابية في خيمتها، تلك التي كانت لا تعرف ما هي القراءة والكتابة، كانت تتذوق الجيد من شعر جرير، والأخطل، والفرزدق، وتتغنى بأحسن أغاني مصعب، ونصيب، وإسحاق الموصلي، وتطرب للفجر الجميل،

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

وتهتز نفسها لنسيم الأصيل، وتقل الصحراء – بفتنتها الطبيعية –
على سحر القصور الزائفة... إن مستوى الذوق العام – وبالأحرى
مستوى الثقافة الحقيقية – لا شأن له بكتابة أو قراءة...!

فقال الروسي بقوة:

– على النقيض: إن فكرة التعليم العام للقراءة والكتابة
كغيرها من بقية الأفكار الأوروبية الخاطئة التي روجتها أوروبا،
وجعلتها بمثابة المبادئ الثابتة ثبوت للمقائد، قد انقلبت أسلحة
فتاكة لجوهر الطبيعة البشرية: فالدهماء التي تعلمت تلك الرموز
السخيفة، ماذا اكتسبت؟... لقد حشت أدمغتها بسخف وقاذورات
كما يقول «مكسلي»، وهبط مستوى ذوقها، ومع ذلك لم تتكون لها
شخصية ولا إرادة: فما أنت ذا تراها تنقاد كالخراف إلى كل من
يقوم فيها ناعقاً أمام «ميكروفون»؛ فالدهماء هي الدهماء، ولا
أصلح لقلبها وعقلها من وسائل الشرق الطبيعية في التهذيب:
تعمير قلبها بالدين وعقلها بالكتب السماوية النبيلة الفصيحة،
وتركها تتصل بالطبيعة لا «محفوظة في علب»... الراديو والسينما
والكتب، ولكن الطبيعة الحقيقية، أمنا الرؤوم؛ تكشف لهم عن
جمالها وأسرارها مباشرة، بغير وسيط من الرأسماليين
المغامرين، وأصحاب الأعمال الأفاكين!... تلك هي نتائج العلم
التطبيقي عندما ترك في أيدي الأوروبيين، وذاك أثره في النفس
الإنسانية، أنظر بعد ذلك أثره في جسم البشرية، تجد أنه
استحال إلى قنابل وغازات خانقة وطوربيد وغواصات ودبابات،

إلى آخر ذلك الإبداع والتفنن في وسائل الفتك بأجسام البشر؛ فالعلم التطبيقي في الغرب كل محوره تحطيم البشرية روحاً وجسماً... إن العلم تلك «الماسة» العظيمة المتألفة؛ لم تضعها أوروبا في قمة عمالتها، لتشع نوراً وجمالاً، ولكنها وضعتها في سن مخرطة بخارية، لتقطع بها زجاج ذلك الكأس العظيم: كأس البشرية الممتلئ بماء روحها، ومادة جسدها... أما العلم الصرف، البعيد عن ضوضاء «الألة»، ومطامع أصحاب المنافع، فإن الشرق هو الذي عرفه لذاته، كمظهر من مظاهر المبقرية الأدمية المفكرة، في تمطشها لمعرفة الحقيقة العليا... وهنا كل نبل العلم، وغايته. هذا العلم الخالص أورثته أفريقيا وآسيا فتاتهما الشقراء أوروبا، سبائك ذهبية وأحجاراً كريمة من الزمرد والفيروز والياقوت، فاحتفظت الفتاة ببعضه، وجعلته حلياً لبهرجها، وهنا كل جمال أوروبا الفكري الباقي، أما بقية الكنوز فصهرتها وصكتها نقوداً تضعها في المصارف، وصنعت منها أغلالاً تستمبد بها العالم... ومع ذلك فهي لم تعرف التحلي بالعلم لذاته إلا منذ عهد قريظة... لا تنس أن أوروبا هي الوحيدة التي أهدمت في يوم علمائها حرقاً، واتهمتهم بالسحر والجنون، وخنقت حرية الرأي حتي في شؤون الأدب والضمير. وجعلت من المسيحية التي تبشر بالمحبة والسلام، سلاحاً للفتك أمام محاكم التفتيش. ولكن أوروبا اليوم أبرع قليلاً من ذي قبل، فهي تجيد إخفاء حيوانيتها، تحت ريش صناعي يمثل أجنحة ملك سماوي. إن أوروبا اليوم هي أزمة شديدة. لا شك أنها أخطر أزمة

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

مرت بها؛ ذلك أنها قد تشبهت إلى أن ما زعمته مدنية عظيمة قد أفلست، وظهرت من تحت الريش أنياب الخنازير البرية... وقد فهم الشرق أن فتاته ليست إلا غانية خليعة، لا قلب لها ولا ضمير، وليست لها قيمة روحية ولا خلقية، وأن مآلها السقوط، ممزقة الجسد، تحت موائد الممربدين، في ذلك الحان الذي تشرف نوافذه من جهة. على المحيط الأطلنطي، ومن الجهة الأخرى على البحر الأسود... أيها الصديق!... إلى الشرق!... إلى الشرق!... فلنرحل معاً إلى الشرق... إن أجمل ما بقي لأوروبا إنما أخذته عن الشرق!... لم تمد حياتي هنا!... إن المودة إلى الهدوء والصفاء هي في عودتنا إلى فضاء الصحراء، هناك نستنشق بملء رثتيننا، لا دخان المداخن، ولكن رائحة السماء. هناك لا نجد تلك السحب الكثيفة، التي تحول بيننا وبين الله؟... هلم بنا؛ لقد يئست... إن قليلاً من الأمل كان قد داعب قلبي؛ إذ تذكرت منذ أيام حكاية عودة الشاعر الفرنسي «كوكتو» إلى حظيرة الكنيسة، وأنت لا شك تعرف حكاية هذا الشاعر القلق! لقد استنفد كل حياة الفكر والفن، وعرف المجد الأدبي، وانغمس في نهر الحياة اللاهية، وبلغ كل ما يستطيع أن يبلغه الفكر الشارد وحده بعيداً عن الإيمان!... فماذا حدث؟... تملكه السأم من الحياة، وشعر بالنقص في كيانه، وبالفرغ في قلبه؛ - فضاقت ذرعاً بأيامه، فألقى بنفسه القلقة في أحضان «الأفيون»، لعله يجد فيه الشفاء والراحة. استمع إليه يقول في خطابه، إلى نهر الموتى، إنه ينسخنا، أو يحولنا إلى شبه مرج من المروج اللطيفة.

ويجعل من جسدنا ليلاً، تتزاحم فيه النجوم، كأنها النمل، ولكن سعادتنا هي سعادة في مرآة تغدو فيها من رؤسنا إلى أقدامنا محض أكذوبة وإذا نحن كالمومياة: تقف آلة الأجسام وتأبى الأعضاء أن تطيع، لا تؤثر فينا تقلبات الطقس، وما نمود نشعر ببرودة أو حرارة... لقد كان مصورو «نايلي» يزینون حيطان المساكن، بما يسمونه «خدعة المین». إن «الأفيون» ليس إلا مصوراً طريقتة خدعة الروح، إنه يزین حيطان الحجره التي أذخن فيها فترتاح نفسي، إن الأفيون هو طارد الحيرة والقلق... إن الأفيون ليشبه «الدين»، بالقدر الذي يشبه فيه «المشموذ»، «المسيح»... ألخ. ألخ. وأشرف «كوكتو» أخيراً على الدمار، إلى أن ألقى بنفسه في أحضان الدين، هنا كان أملي الأخير أنا أيضاً؛ إذ اعتقدت أن الأوروبي المفكر، الذي شب على هذه المدنية، يستطيع أن يمود إلى الإيمان الحقيقي في الوقت المناسب، إلى أن قرأت هذه الرسالة المتبادلة بين «كوكتو وماريتان»، فخامرني الشك... إنها رسائل على غاية ما تكون من البراعة في الأسلوب، واتقاد الذكاء، ولكنها ليست أكثر من «قطع أدبية». أه، إنهم يكتبون «أدباً»، هؤلاء الناس - حتى يوم يوهموننا أن المسألة مسألة حياة أو موت... إن الفرق بين عبقرية الغرب الروحية، وبين عبقرية الشرق الروحية: كالفرق بين «المشموذ» و«المسيح»... خذ هذين الكتيبين: إقرأهما، وأخبرني هل تصدق أن هذين الرجلين يمتقدان حقاً بالسماء وما فيها، من جنة ونار، اعتقاد ذلك المسلم الذي قلت لي الآن: إنه ألقى البلع من يده،

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

وجرى يقدم نفسه للقتل؛ واعتقاد أولئك الشهداء من المسيحيين الفابرين!... إنني أفهم أن يتكلم هؤلاء الشعراء الأوروبيون عن الدين والمسيح كلاماً كله إعجاب خالص!... إنني أيضاً أعجب الإعجاب الخالص بالأديان، ولكن الذي أريد ليس مجرد الإعجاب، كما تفعل أمام قطعة فنية، من عمل عظماء الفن أو الأدب أو الفكر!... لست أريد الإعجاب الناشئ عن ألتنا المفكرة، وما فيها من بضاعة ثقافية مكتسبة أو موروثية؛ - إنما أريد الإيمان؛ إيمان القلب «الإيمان الأعمى بأن المسيح في السماء، وأن الله هو الله كما يتصوره البسطاء، وأن الجنة هي الجنة كما يتخيلها أولئك الذين قال فيهم المسيح: «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات!... طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعمونون الله!.. آه يا صديقي، يا أخي!... إن أوروبا كلها الآن ليست إلا رجلاً مفكراً فلقاً حائراً يتعاطى الأفيون. إن «جان كوكتو» هو كل «أوروبا» هي أمتها الحاضرة!... أنتهت أوروبا، ولا شيء من داخلها يستطيع إنقاذها؛ لأن كل شيء، إلى «عقليتها» هذه - تحوله إلى أدب وأسلوب وزيف وكذب!... إنما الإنقاذ من الخارج، إنما النجاة في الفضاء إلى هناك... إلى الشرق... قم معي... إلى الشرق!... دع الهواء يدخل، أخلع عني هذه الأردية الثقيلة، هذه السحب الكثيفة تحجب عني.

وامتلاً فم الروسي برغوة وزبد، ووضع يده على عنقه يمزق قميصه، كأنما هو يختنق، وأصفر وجه «محسن» ولم يبدر حراكاً...

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

ثم تنبه قليلاً من ذهوله، فصاح صيحة مدوية، وأسرع إلى الباب يطلب النجدة!...

اعتكف «محسن» بضعة أيام، علم خلالها أن صحة «إيفانوفتش» غاية في السوء، وجاءه صاحب المنزل ذات صباح يطرق عليه بابه... ففتح له مفزعاً:

- ما الخبر؟...

- صديقك الروسي...

- مات؟....

- لما يمت بعد، ولكنه يسأل عنك اليوم منذ طلعت الشمس...

- وكيف حاله؟...

- لست أدري، هو يزعم أنه اليوم بخير، ولكنه مريض بذات الرئة؛ كما تعلم، داء لا يرحم.. أتذكر ذلك اليوم عندما صحت مستنجداً؟... لقد أغمي عليه أيضاً في المساء، وكان في حالة احتضار حقيقية، فاستدعينا له القسيس، ولكنه ما أن فتح عينيه قليلاً وأبصره حتى صاح فيه وفينا بصوت خائر لكنه نائر:

- «أبعدوا عني هذا السكير بوجناته الموردة»...

وتصور عندئذ أي حرج وقعنا كلنا فيه!...

على أي حال، قد بلغتك يا مسيو «محسن»، ولك أن تذهب إليه إذا شئت، أو لا تذهب...

وخرج صاحب المنزل، تاركاً الفتى في مكانه مطرقاً

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

مفكراً... ولم يجد «محسن» بدأ من الذهاب إلى «إيفان» على
الفور، فقام ومضى إلى حجرتة، فوجده في فراشه، يتأمل أشعة
الشمس الداخلة من النافذة، وتبته الروسي لحركة دخول «محسن»
فوجه بصره إليه، وأشار له بيمين باسمه إلى شعاع ذهبي انعكس
على الفراش:

- ما أجمل الشمس اليوم!...

- نعم...

قالها الفتى في غير اكتراث، وهو يتأمل وجه الرجل الشاحب،
وفرحة الذي يشبه فرح الطفل الساذج بهذا الشعاع فوق سريره،
وساد صمت، قطعه المريض بشبه همس:

- أم!... النور... النور يشرق من بلاد الشمس «ليفرب» في
بلاد الفرب!...

ثم التفت إلى «محسن» وقال له في صوت متداع:

- اقترب يا صديقي، وانهض قليلاً... فإنني سئمت طول
الرقاد!...

فتردد الفتى خوفاً عليه:

- إنني أخشى...

- لا تخش شيئاً، ضعني بجوار النافذة، أعني على الجلوس،
حيث يفمرني نور الشمس!...

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

فلم يز «محسن» بدأ من تلبية رغبته... فساعده على القيام،
ومشى به إلى ظهر صندوقه الخشبي، حيث وضعه عليه وضماً،
فقال الروسي وهو يستشق الهواء بما بقي له من رثتين:

- شكراً لك... أيها... الصديق!...

ثم أمسك بيد «محسن» بين يديه، ونظر إليه طويلاً وقال:

- أتعاهدني؟...

- على ماذا؟...

- أن نذهب معاً إلى... الشرق؟...

فتردد الفتى قليلاً ثم نظر إلى كيان الرجل الواهي:

- نعم، عندما تسترد كل صحتك!...

- إنني أشعر اليوم أنني قد شفيت، إن صحتي تسمح لي أن
أسافر، اليوم بالذات!... اسمع: إن لدي في هذا الصندوق مبلغاً
من المال أدخرته يكفي نفقات السفر!... وسأخرج اليوم أبحث
عن مشتر لهذه الكتب وهذه الأمتعة... لست في حاجة إلى كتب
بعد اليوم، إنما أنا في حاجة إلى... هواء... وفضاء... وصفاء!...

وخشي «محسن» أن تنمو الفكرة في رأس هذا المريض،
فيرتكب حماقة تسيء إلى صحته... فلم يُبد حماساً لما قال... ثم
أراد أن يثنيه، عن عزمه فقال:

- أرى أنك تقسو في الحكم على الغرب يا مسيو «إيفان»

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

مهما يكن من أمر، فإن أوروبا قد وصلت بالعلم البشري إلى قمم لم يصل إليها...

فلفظ الرجل ضحكة سخرية، وقال:

– من قال لك ذلك... أتعرف ما هو العلم أيها الفتى؟... إن العلم «علمان»: العلم «الظاهر» والعلم «الخفي»، وإن أوروبا حتى اليوم طفلة، تمبث تحت أقدام ذلك «العلم الخفي»، الذي كانت حضارات أفريقيا وآسيا وقد وصلت به حقيقة إلى قمم المعرفة البشرية... أما العلم «الظاهر» وحده فهو كل ميدانها، إلا أن الآلة المفكر محدودة، وإن كل وسائل العلم الظاهر هي أعضاؤها وحواسنا الظاهرة، وتلك ليس لها من الدقة ما يقتنص، غير الظواهر التافهة؛ من ظواهر الطبيعة والكون – مهما تعاونها الآلات والمدسات... كل هذا العلم الحديث الذي يبهرك، ليس في حقيقته غير «طريقة» و«أسلوب» التفكير المنتظم و«طرائق» البحث العقلي المرتب، أما أكثر من ذلك فلا... وأما أن نسمي مجرد استكشاف بعض خواص الطبيعة بحواسنا، وصولاً إلى قمم المعرفة البشرية، فتلك هي السخرية الكبرى!... إن قمم المعرفة البشرية هي مجاهل ذلك «العلم الخفي»، الذي لم يدخل قط عقل أوروبا؛ لأن وسائلها كما قلت لك لا تهيئها إلا لفهم مظاهر الحياة السطحية، ولا أقسو عليها إذا استعملت كلمة «السطحية» لأنها هي الحقيقة... إن عين العلم الأوروبي لا تقع دائماً إلا على سطح الأشياء؛ ككل عين!... إنها مدنية لا تدرك ولا تعترف إلا

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

بما يقع تحت لمسها وبصرها ومنطق عقلها، ولا تقوم إلا على عالم المحسوس، واني أصر على أن هذه الكبيرة إن هي إلا «مدنية ناقصة»: لأنها لا تعرف الحياة إلا في «عالم واحد»... أريد أن أهرب إلى البلاد التي تمشي في «طلين»، تلك البلاد التي ارتفعت فيها المعرفة البشرية إلى قمم «العلمين»...

وسكت الرجل قليلاً، ولمح «محسن» التعب على وجهه فقال له:

لا تتكلم كثيراً... أرجو منك ذلك... حسينا ما حصل في المرة السابقة...

- لن أتكلم، كفى كلاماً... ولكنني سأفعل!... إلى العمل!... ثم تحامل ونهض قليلاً مستنداً إلى الحائط فأسرع إليه «محسن»:

- إلى أين؟...

- أرتدي ثيابي؛ لأخرج فأبيع هذه الكتب... وأتهدى للسفر...

- ليس الآن، ليس الآن... إنك متعب...

- دعني، أيها الشاب، سنذهب إلى الشرق، أريد أن أرى جبل الزيتون، وأن أشرب من ماء النيل وماء الفرات وماء زمزم وماء...

- وتترك هذه البلاد... وهذه الحضارة... وتترك «بيتوهفن»؟... أه يا مسيو «إيفان»!... إنك تستطيع أن تقول كل شيء عن الغرب فأسمع لك، ولكن «بيتوهفن» ها هو ذا نبي

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

حقيقي... ها هو ذا رسول للمحبة والسلام، خليق أن يرفع مجد الغرب إلى أبد الأبد... وأن يظهر الإنسانية وأن ينير القلوب...

فالتفت الروسي إلى «محسن» قائلاً هي قوة:

– بيتهوفن!... بيتهوفن!... نعم «بيتهوفن»، و«هاندل»، و«موراس»، و«هايدن»، و«جان سباستيان باخ»، و«ميكل أنج»، و«رفايل»، و«رمبرانت»، و«باسكال»، و«سان توماس»، و«كوبرنيك»، و«جاليليه»، و«دانتي»... الخ الخ... كل أولئك إن هم إلا زهرات يانعات في حديقة المسيحية الفناء!...

ثم وضع يده على كتف «محسن» المطرق الساهم:

– هلم إلى المنبج!... إلى المنبج!... إلى هناك... إلى هناك!...

ثم ترك الفتى في إطرافه، وتحامل متكئاً على الحائط، يبحث عن حذائه وسترته... ومرت في رأس «محسن» خواطر، وبدت له صور من الشرق اليوم، فرفع رأسه وقال لصاحبه الروسي:

– ألم تر الشرق قط من قبل؟!...

فأجاب الرجل، وهو يضع حذاءه في إحدى قدميه.

– لم أره قط إلا في أحلامي... ولكنني لن أموت قبل أن أراه!...

فأطرق «محسن» مرة أخرى، وهم أخيراً أن يرفع رأسه ليقول لـ «إيفان»:

- مهلاً، مهلاً أيها الصديق!... إن ذلك المنبع الذي تريد أن تراه، وتلك الأنهار التي تريد أن تشرب منها: - قد تسمت كلها... إن «الفتاة الشقراء» يوم حققت فخذها «بالمورفين» السام لم تترك أبويها سالمين: لقد قُضي الأمر، ولم يمد هنالك نبع صاف؛ فإن الزهد قد ذهب كذلك من الشرق!... وإن رجال الدين هناك يعرف بعضهم اليوم كذلك اقتناء السيارات، وقبض المرتبات، وتورد الوجنات من النعم والمتع، وإن ثياب الشرق الجميلة النبيلة هي اليوم خليص عجيب من الثياب الأوروبية، يثير منظره الضحك، كما يثيره منظر قرده، اختطفت ملابس سائحين من مختلفي الأجناس، وصعدت بها فوق شجرة ترتديها، وتقلد حركات أصحابها!... وإن التعليم العام للقراءة والكتابة، وحق التصويت والبرلمان، وكل هذه الأفكار الأوروبية قد أصبحت في الشرق اليوم مبادئ ثابتة، يؤمن بها الشرقيون إيمانهم - بل أكثر من إيمانهم - بمبادئ الأديان!... وإنه لمن السهل أن تقنع شرقياً اليوم بأن دينه فاسد، ولكن ليس من السهل أن تقنعه بأن «الصناعة الكبرى» هي عجلة «إبليس» التي يقود بها الإنسانية إلى الدمار... وأن التعليم العام لرموز الكتابة نوع من الهراء، وإنك قد تستطيع اليوم أن تقتلع من رأس الشرقي عظمة السماء... ولا تستطيع مطلقاً أن تقتلع منه عظمة «المعلم الأوروبي الحديث»، وإنه لمن اليسير أن تسفه عند الشرقي الآن «رسالة» الأنبياء، ولا يمكن أن تسفه لديه «رسالة» القوة المادية الحديثة!... بل من المجيب أن هذه الأفكار والمبادئ التي تعتبر في الشرق اليوم

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

ثابتة ثبوت الآيات المنزلة قد يناقشها الأوروبيون أنفسهم وينقضونها، وهي ما تزال حافظة عندنا كل قوتها... وإن المدفع قد ينطلق في أوروبا ضد بعض هذه الأفكار، ونرى ضوء لهبه، ولكن الصوت لا يصل إلى آذاننا... لا لبعد المسافة: بل لأن آذاننا لا تسمع، وقلوبنا لا تمي!... لقد كانت «الحقنة» شديدة الضلع والأثر... نعم، ولا أحد يدري هل أوروبا حققت الشرق بأفيون خالص أو بأفيون ممزوج بسم نافع، سرى - وما زال يسرى - في شرايينه يقتل كل بذور المثل العليا الشرقية في النفوس: فشبان الشرق اليوم - عندما أرادوا أن يتخذوا لهم مثلاً للرجولة والبطولة - لم يتجهوا شطر «غاندي» ولكنهم اتجهوا بعيون: كأنها منومة تنويم المغنطيس شطر «موسوليني»، ويوم أرادوا أن يجعلوا للتقشف والجلد والخشونة لباساً، لم يضموا على أبدانهم المارية القوية رداء بسيطاً من القطن، يصنمونه بأيديهم: - لكنهم ارتدوا القمصان الأوروبية ذات الألوان!... إذاً حتى أبطال الشرق قد ماتوا في قلوب الشرقيين!...

نعم، اليوم لا يوجد شرق!... إنما هي غابة على أشجارها قردة تلبس زي الغرب، على غير نظام ولا ترتيب ولا فهم ولا إدراك. لم يجرؤ «محسن» أن يقول هذا الكلام لصاحبه الروسي: فقد أدرك أن هذا الرجل، الذي لم يستطع شيء في الغرب أن يشفي نفسه القلقة الحائرة: - قد وضع كل أمله في الشرق، وقد صنع للشرق في رأسه صوراً عظيمة هي كل أمله الباقي، وإن

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

كشفت الحقيقة لعينه الآن أفضح طمعة يقتل بها هذا المسكين،
فتركه في خيالاته...

ورفع الفتى رأسه أخيراً ليرى ماذا يصنع صاحبه، فالفأه
ملقىاً على ظهر الصندوق ورأسه إلى الحائط وفي إحدى قدميه
الحذاء، فأخذه روع لمرأه وأسرع إليه:

- ماذا بك؟... مسيو «إيفان»... ماذا بك؟...

فقال الرجل في صوت كالشجرة:

- فات الأوان!...

- أي أوان؟...

- اذهب أنت وحدك... إلى... هناك...

- أستدعي لك الطبيب، يا مسيو «إيفان»؟... أطلب لك؟...

- لا... لا تفعل شيئاً... إنني... أعرف نفسي...

ومال رأسه، وانطفأ النور الباقي من عينيه، لكنه تحامل وقال
في صوت لا يكاد يسمع:

- اذهب أنت يا صديقي... إلى هناك... إلى النبع... واحمل

ذكري وحدها معك... وداعاً...

قنديل أم هاشم

يحيى حقي (1944)

يحيى حقي (1905 - 1987) روائي مصري كبير. صاحب رواية قنديل أم هاشم. عُيّن أميناً لمحفوظات القنصلية المصرية في جدة عام 1929، ثم نقل منها إلى إسطنبول عام 1930، حيث عمل في القنصلية المصرية هناك. حتى عام 1934؛ بعدها نقل إلى القنصلية المصرية في روما، التي ظل بها حتى إعلان الحرب العالمية الثانية في سبتمبر عام 1939؛ إذ عاد بعد ذلك إلى القاهرة في الشهر نفسه، ليعيّن سكرتيراً ثالثاً في الإدارة الاقتصادية بوزارة الخارجية المصرية. وقد مكث بالوزارة عدة سنوات رقي خلالها حتى درجة سكرتير أول، حيث شغل منصب مدير مكتب وزير الخارجية، وقد ظل يشغله حتى عام 1949م؛ وتحول بعد ذلك إلى السلك السياسي إذ عمل سكرتيراً أول للسفارة المصرية في باريس، ثم مستشاراً في سفارة مصر بأنقرة من عام 1951 إلى عام 1952، فوزيراً مفوضاً في ليبيا عام 1953.

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

أعماله:

نشر أربعة مجموعات من القصص القصيرة. ومن أشهر رواياته: «قنديل أم هاشم» و «البوسطجي». كتب العديد من المقالات والدراسات النقدية.

أنشئت مصلحة الفنون سنة 1955 فكان أول وآخر مدير لها، إذ ألغيت سنة 1958 فنقل مستشاراً لدار الكتب. وبعد أقل من سنة واحدة أي عام 1959 قدم استقالته من العمل الحكومي، لكنه ما لبث أن عاد في أبريل عام 1962 رئيساً لتحرير مجلة «المجلة» التي ظل يتولى مسؤوليتها حتى سنة 1971.

الرواية:

إسماعيل، بطل الرواية، طالب يمشي في حي السيدة زينب مع أمه وأبيه، ثم يسافر لاستكمال دراسة الطب في إنجلترا، حيث يحتك بالحضارة الأوروبية. وهناك يتعرف على فتاة إنجليزية تعلمه كيف يحب الحياة وكيف يكافح ليكون فرداً منتجاً مستقلاً، ثم يمود إسماعيل إلى مصر ويممل طبيباً للميون ويفتح عيادة في نفس الحي، السيدة زينب، يكتشف أن سبب الإصابة بالعمى وضعف النظر عند مرضاه هو استخدامهم قطرات من زيت قنديل المسجد، وعندما يكتشف أيضاً أن خطيبته تعالج بنفس الأسلوب يحطم قنديل المسجد، وينفضُ عنه مرضاه وأمله لاعتقادهم أنه يهاجم ويتحدى معتقداتهم الدينية. ولا يجد بداً من عقد مصالحة بين العلم والمعتقدات، فيعود لملاج ابنة خالته وخطيبته فاطمة مستخدماً الإيمان والعلم معاً. ويكتشف إسماعيل أنه من الأهمية

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

اكتساب حب الناس وأسرته وليس تحدي معتقداتهم الدينية. والرواية توضح من خلال الرمز «الموقف الذي ينبغي أن يتبناه العرب من تلك الحضارة (الفريية). وهو موقف يرفض التعالي والفتوسة وفرض ما يفيد. من الحضارة الواحدة عنوة، لكنه يتقبله متى امتزج في الحضارة القائمة وأصبح من عناصرها. وبهذا الاسلوب، يحتفظ العربي بهويته الثقافية ويستفيد من إيجابيات الحضارات الأخرى في آن واحد» (قاموس الادب العربي الحديث، القاهرة: دار الشروق، 2007، ص. 612).



ومرّت سبع سنوات، وعادت الباخرة.

من هذا الشاب الأنيق السمهريّ القامة، المرفوع الرأس، المتألق الوجه، الذي يهبط سلم الباخرة ففزأ؟ هو والله إسماعيل بعينه. أستغفر الله! هو الدكتور إسماعيل، المتخصص في طب الميون، والذي شهدت له جامعات إنجلترا بالتفوق النادر، والبراعة الفذة، كان أستاذه يمزح معه ويقول له:

– أراهن أن روح طبيب كاهن من الفراعنة قد تقمصت فيك يا مستر إسماعيل. إن بلادك في حاجة إليك، فهي بلد العميان.

رأى فيه دراية كأنها ملهمة، وصفاء هو سليل نضج أجيال طويلة، ورشاقة أصابع هي وريثة الأيدي التي نحتت من الحجر الصلد دمي تكاد تعيا.

أقبل يا إسماعيل فإننا إليك مشتاقون. لم نرك منذ سبع سنوات مرّت كأنها دهور. كانت رسائلك المتوالية، ثم المتراخية، لا تنفع في إرواء غلتنا. أقبل إلينا قدوم المافية والغيث. وخذ مكانك في الأسرة فستراها كآلة وقفت بل صدت لأن محركها قد انتزع منها. آه! كم بذلت هذه الأسرة لك. فهل تدري؟ لم ينم إسماعيل ليلة الوصول إلا غراراً. ففز إلى ظهر الباخرة مع الفجر يريد ألا يفوته أول ما يبدو من شاطئ الإسكندرية. لا يرى شيئاً على الأفق، ولكن خياشيمه تتشمع في النسيم رائحة لم يأنفها من قبل. أول من لقيه من وطنه مخلوق الكون كله وطنه. طائر أبيض، منفرد يحوم حول السفينة. طليق متعال، نظيف، وحيد. لماذا تتعمد البواخر كل هذا التلكؤ عند الوصول، وما كان أسرعها عند الفراق؟ إنها تتهادى بدلال المودة. فما لها وللركاب وما يشعرون. كتم إسماعيل عن أهله موعد الباخرة حتى لا يكلف أباه الشيخ مشقة السفر للإسكندرية. في عزمه أن يبرق إليهم بموعد وصول قطاره للقاهرة. هذا هو الفئار المتمنطق، وهذا هو الشاطئ الأصفر يكاد يكون في مستوى الماء. أنت يا مصر راحة ممدودة إلى البحر لا تفخر إلا بانبساطها، ليس أمامك حواجز من شعاب خائنة، ولا على شاطئك جبال تصدّ. أنت دار كل ما فيها يوحى بالأمان... ها هو أول قارب يظهر، فيه شيخ قد وخط الشيب لحيته، مقوس الظهر، أقمى كالقرد في مقدم قاربه يصطاد. جلبابه الأزرق، أو الذي كان أزرق، ممزق مدقع. وقمت نظرة إسماعيل على سيدة مصرية وقفت بجواره، فرأها مطلّة على الصياد، مفروقة عيناها بالدموع وسممها تتمتم:

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

- مصر! مصر!

كيف ينتبه لها الصياد وهو لم ينتبه للباخرة كلها. مثلها
كثيرات داخلات خارجات تكاد تصدم قاربه، ولكن هيهات لها أن
تصدم عالمه المقفل، عالم يجري على وتيرة واحدة متكررة يوماً
بعد يوم. همّ إسماعيل بأن ينادي هذا الشيخ ويلقي عليه السلام،
أو يلوح له بمندبل. كيف تسقط المقاييس وينهزم المنطق في مثل
تلك اللحظات التي تتأجج فيها المواطف، وتصفو القلوب!

ورن جرس إيداناً بموت الباخرة، فأصبحت جثتها فريسة
لجيش من النمل البشري يهاجمها. جنود وضباط، وإخواننا
المحتلون ولو أنهم أخلاط مطربشون، وحمالون وصيارفة وزوّار.
ثم اندلق الزحام والتدافع، وتعالّت النداءات، وكثر العناق
والتقبيل، وإسماعيل وسط التيار، غير مغمور، يلتقط بينهم كل ما
يصل إليه، وعلى شفّته ابتسامة حلوة مطمئنة. له أذن فارزة
واعية، ونظرة حيّة يقظة تريد أن ترى كل شيء، وتفهم كل شيء.
إذا دققت النظر إليه وجدت تكورات وجهه قد زالت وشُدّ شذّاه
في أخدودين. كانت شفّته مرتختيتين، فلما تنطبقان، أما الآن
فقد ضمهما عزم ووثوق. يجتاز الجمرك. وفي العربة يستمع لوقع
عجلاتها بين الأسفلت والبلاط، فيذكره تناثر النغم وتناوبه بيوم
السفر. كم يبدو له هذا اليوم متردياً في هوة من ماض بعيد.
بعيد كالحلم... كيف تقوى ذكرى هذا اليوم على البقاء بعد سبع
سنوات قضاها في إنجلترا قلبت حياته رأساً على عقب. كان عمّاً

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

فغوى، صاحياً فسكراً، راقص الفتيات وفسق. هذا الهبوط يكافئه
صمود لا يقل عنه جدّة وطرافة، تعلم كيف يتذوق جمال الطبيعة،
ويتمتع بغروب الشمس – كأن لم يكن في وطنه غروب لا يقل
جمالاً – ويلتذّب بسعة برد الشمال.

إن لم يكن له في هذه الفترة سوى «ماري» زميلته في
الدراسة لكفى بها في نسيان ماضيه. لقد أخذ هذا الفتى الشرقي
الأسمر بلبها فأثرته واحتضنته. عندما وهبته نفسها، كانت هي
التي فضّنت براءته المذراء. أخرجته من الوخم والخموم إلى
النشاط والوثوق، فتحت له آفاقاً يجهلها من الجمال: في الفن،
في الموسيقى، في الطبيعة، بل في الروح الإنسانية أيضاً.

قال لها يوماً:

– سأستريح عندما أضع لحياتي برنامجاً أسير عليه.

فضحكت وأجابت:

– يا عزيزي إسماعيل. الحياة ليست برنامجاً ثابتاً، بل

مجادلة متجددة.

يقول لها: «تمالي نجلس» فتقول له: «قم نسر» يكلمها عن
الزواج، فتكلمه عن الحب. يحدثها عن المستقبل فتحدثه عن
حاضر اللحظة. كان من قبل يبحث دائماً خارج نفسه عن شيء،
يتمسك به ويستند إليه: دينه وعبادته، وتربيته وأصولها، هي منه
مشجب يعلق عليه معطفه الثمين، أما هي فكانت تقول له: «إن
من يلجأ إلى المشجب، يظلّ طول عمره أسيراً بجانبه يحرس

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

معطفه. يجب أن يكون مشجيك في نفسك». إن أخشى ما تخشاه هي: القيود، وأخشى ما يخشاه هو: الحرية. كانت هبتها له في مبدأ الأمر محلّ حيرته، فكانت حيرته محلّ سخريتها. كان يتجافى الناس ويقدر احتمالات ودهم، ويهتم كيف يكون حكمهم عليه، وإذا لقي من تريعه المجامة لا يجد بأساً في مجاملته، وقلبه غير مشارك. التعارف عنده اصطدام بين الشخصيات يخرج منه ظاهراً أو خاسراً. أما هي فتهمم بالناس جميعاً، ولا تهتم بهم جميعاً. التعارف عندها لقاء، والود متروك للمستقبل، ومع تساوي ودها للناس جميعاً، كانت بتارة في إقصاء الضعيف، والسخيف، والمتعالم، الرذيل، والحزين، والمنافق، فلما تخلصت من هذا الأوشاب أصبحت لا ينجذب إليها إلا من تطمئن لصحبتهم.

رأته يطيل جلسته بجانب الضمفاء من مرضاه، ويخص بمعطفه من يلحظ فيه آثار تخريب الزمن للأعصاب والمقول، وما أكثرهم في أوروبا، يجلس صامتاً ينصت لشكواهم. وكان أكبر كرم منه أن يماشي منطقته منطقتهم المريض. لحظته «ماري»، وحلقة المرضى والمهزومين تطبق عليه يتشبثون به، كل يطلبه لنفسه، فأقدمت وأيقظته بمنف:

– أنت لست المسيح ابن مريم! «من طلب أخلاق الملائكة غلبته أخلاق البهائم»، والإحسان أن تبدأ بنفسك». هؤلاء الناس غرقى يبحثون عن يد تُمد إليهم، فإذا وجدوها أغرقوها معهم! إن هذه المواطف الشرقية مردولة مكروهة، لأنها غير عملية

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

وغير منتجة. وإذا جردت من النفع لم يبق إلا اتصافها بالضعف والهوان. إنما هذه المواطف قوتها في الكتمان لا في البوح.

كانت روحه تتأوه وتتلوى تحت ضربات معولها. كان يشمر بكلامها كالسكين يقطع من روابط حياة يتغذى منها إذ توصله بمن حوله. واستيقظ في يوم فإذا روحه خراب، لم يبق فيها حجر على حجر. بدا له الدين خرافة لم تخترع إلا لحكم الجماهير، والنفس البشرية لا تجد قوتها ومن ثم سمادتها إلا إذا انفصلت عن الجموع وواجهتها. أما الاندماج فضعف ونقمة.

لم تقو أعصابه على تحمل هذا التيه الذي وجد نفسه غريقاً وحيداً في خلائه، فمرض وانقطع عن الدراسة، وافترسه نوع من القلق والحيرة، بل بدت في نظرتة أحياناً لمحات من الخوف والذعر.

وكانت «ماري» هي التي أنقذته. أخذته في رحلة إلى الريف بإسكتلندة، يجولان بالنهار مشياً أو على الدراجة بين الحقول، أو يصطادان السمك، وبالليل تزيقه من متع الحب أشكالاً وألواناً. من حسن حظه أنه استطاع أن يجتاز هذه المحنة التي يتردى فيها الكثيرون من مواطنيه الشباب في أوروبا، وخلص منها بنفس جديدة مستقرة، ثابتة واثقة. إن مطرح الاعتقاد في الدين، فإنها استبدلت إيماناً أشد وأقوى بالعلم، لا يفكر في جمال الجنة ونعيمها، بل في بهاء الطبيعة وأسرارها. ولعل أكبر دليل على شفائه أنه بدأ يتخلص من سيطرة «ماري» عليه. أصبح لا يجلس

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

بين يديها جلسة المرید أمام القطب، بل جلسة الزميل إلى زميله. لم يدهش، ولم يتألم كثيراً، عندما رآها تبتمد عنه وتنصرف إلى زميل من جنسها ولونها. إنها ككل فنان يمل عالمه حين يتم. شفي إسماعيل ففقد كل سحره، أصبح كغيره ممن تعرفهم، فلتجرب إذاً صديقها الجديد... على أن إسماعيل لم يقو على مفادرة إنجلترا دون أن يسمى إلى لقائها لآخر مرة. دعاها فلم ترفض، وجاءته. ولم يسأل نفسه أعلى علم من صديقها الجديد أم على غفلة منه؟ ووهبت له نفسها مرة أخرى، فهذه الملاقة ليست عندها بذات بال ولا خطر. كانت ضمتهها له نوعاً من المصافحة وسلام الوداع.

وهتفت به وهي تنصرف على دراجتها:

- أمل أن أراك في مصر يوماً من الأيام. ومن يدري؟ فإلى اللقاء إذاً، ولا أقول وداعاً.

نساء العصر الحديث! كم ذا يواجهن الاحتمالات بقلوب ثابتة، شجرة الحياة أمامهن مثقلة بالثمر منوعته. لهن شهية مفتوحة، فلم التأسى والبكاء على ثمرة والشجرة مفعمة؟

والظاهرة العجيبة التي لا أستطيع تفسيرها أن إسماعيل أفاق من حبه لـ«ماري» فوجد نفسه فريسة حب جديد. لأن القلب لا يمشي خالياً؟ أم أن «ماري» هي التي نبهت غافلاً في قلبه فاستيقظ وانتعش؟ كان إسماعيل لا يشعر بمصر إلا شعوراً مبهماً، هو كذرة الرمل اندمجت في الرمال واندست بينها، فلا تميز

منها، ولو أنها مع ذلك منفصلة عن كل ذرة أخرى. أما الآن فقد بدأ يشعر بنفسه كحلقة في سلسلة طويلة تشده وتربطه ربطاً إلى وطنه. في ذهنه مصر عروس الغابة التي لمستها ساحرة خبيثة بمصاها فنامت، عليها الحلبي و«دواق» ليلة الدخلة. لا رعى الله عيناً لم تر جمالها ولا أنفاً لا يشم عطرها! متى تستيقظ؟ متى؟ وكلما قوي حبه لمصر زاد ضجره من المصريين. ولكنهم أهله وعشيرته والذنب ليس ذنبهم، هم ضحية الجهل والفقر والمرض والظلم الطويل المزمّن. إنه حدّق في الموت مراراً، وجس المجذوم، واقترب فمه من فم المحموم. ترى هل ينكص الآن عن لمس هذه الكتلة البشرية التي لحمه من لحمها ودمه من دمه؟ قد عاهد نفسه في حبه لمصر أن لا يرى منكرًا إلا دفعه. علمته «ماري» كيف يستقل بنفسه، وهيئات لهم بعد ذلك أن يجرعوه خرافاتهم وأوهامهم وعاداتهم. ليس عبثاً أن عاش في أوروبا وصلى معها للعلم ومنطقه. علم أن سيكون بينه وبين من يحتك بهم نضال طويل، ولكن شبابه هوّن عليه القتال ومتاعبه، بل كان يتشوّق إلى المعركة الأولى، وسرح ذهنه فإذا هو كاتب في الصحف، أو خطيب في أحد المجتمعات يشرح للجمهور آراءه ومعتقداته.

وتحرك القطار بإسماعيل ولم يرسل برقيته. لا يدري لماذا ضعف عن لقائهم بالمحطة وسط الضجيج والضوضاء وعلى أعين الناس، وريكة المتاع. إنه يود أن يلقي أعزاه في دارهم، وعلى نجوة من الغرباء. ولم يقدر وقع المفاجأة على أبيه وأمه المجوز.

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

ذكرهما فوجف قلبه. هل يستطيع أن يؤدي لهما بعض ما هو مدين به؟ إنه قادم مزود بنفس السلاح الذي أراد له أبوه. وسيشق لنفسه بهذا السلاح طريقه إلى أول الصفوف. وسيمرض عن خدمة الحكومة ويفتح عيادة في أرقى أحياء القاهرة. وسيدعش القاهريين أولاً ثم المصريين جميعاً بما أتقنه من فن واكتسبه من خبرة. فإذا تدفق عليه المال أعفى أباه الشيخ من العمل، واشترى له أرضاً في بلدهم ليميش مستريحاً. ثم وجم إسماعيل. لقد تذكر أنه لم يأت معه من أوروبا بهدية لأسرته. وسرى عنه إذ قال لنفسه:

– وماذا في أوروبا كلها يصلح لأبي وأمي؟

وفاطمة النبوية؟ ذكراها تثير في نفسه بعض الاضطراب. لم يزل مرتبطاً بوعده. وقد عاد حزناً، فلا عذر له إذا اعتذر. هذه مسألة معقدة فلنتركها للمستقبل.

وأطل من النافذة فرأى أمامه ريفاً يجري كأنما اكتسحته عاصفة من الرمل فهو مهدم مضر متخرب. الباعة على المحطات في ثياب ممزقة تلهث كالحيوان المطارد وتتصبب عرقاً.

ولما سارت المربة من المحطة. ودخلت شارع الخليج الضيق الذي لا يتسع لمرور الترام. كان أبشع ما يتصوره أهون مما رآه: قذارة وذباب، وفقر وخراب، فانقبضت نفسه. وركبه الوجوم والأسى، وزاد لهيب الثورة في قرارة نفسه، وزاد التحفز.

ووقف أمام البيت، وتناول مطرفته، وتركها تسقط، فاختلطت دقتها بدقات قلبه. سمع صوتاً رقيقاً ينادي بلهجة نساء القاهرة:

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

– مين؟

– أنا إسماعيل! افتحي يا فاطمة!

يا إسماعيل. ما أفساك! وما أجهل الشباب!

كادت أمه يغمى عليها، وانعقد لسانها وهي تضمه وتقبل وجهه ويديه، تشهق وتبكي، يا الله! كم شاخت وتهدلت وضعف صوتها وبصرها! إن الغائب في وهم. يتوقع أن يعود لأحبابه فيجدهم كما تركهم منذ سنوات. صوت يهمس في قلبه:

– ليست لها من الشخصية نصيب! ليست إلا كتلة من طيبة سلبية.

وجاءه أبوه تفيض على وجهه ابتسامة هادئة. اشتعل شيبه وإن لم تنحن قامته. في عينيه نظرة مشوية من إعياء وصبر. من راحة ضمير وشعور بالحمل الثقيل. سيعلم إسماعيل فيما بعد أن الأزمة كوته بنارها فانتكست أموره. ومع ذلك لم يتأخر في يوم ما عن موعد إيداع النقود بالبنك لابنه. لم يذكر لإسماعيل في اسكتلندة مع رفيقته يأكل البفتيك، وأبوه فعيد داره، عشاؤه طعمية أو فجل.

لإسماعيل نظرة من طرف عينيه تطوف في الدار، فإذا هي أضيق وأشد ظلمة مما كان يذكر. أما يزال ضوءهم من مصباح البترول؟ قطع الأثاث بالية متناثرة تبدو – رغم مر السنين وطول

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

الصحبة – كأنها مهاجرة في دار غربة. ولماذا هم على البلاط؟
وأين البساط؟

هذه أم محمد ترتبك كمادتها بين الأطباق والحلل. وهي
تزغرد، فيزجرها ويقول لها:

– بس بلاش خوته يا وليه اعقلي.

ولكن أين فاطمة النبوية؟ أقبلت فإذا أمامه فتاة في شرح
الصبا، ضفירתها وأساورها الزجاجية الرخيصة، وحركاتها وكل ما
فيها وما عليها يصرخ بأنها قروية من أعماق الريف. هل هذه هي
الفتاة التي سيتزوجها؟ علم منذ اللحظة أنه سيخون وعده وينكث
عهده. وما لها معصوية العنين؟ فهي ترفع ذقتها لتستطيع أن ترى
وجهه. لم يدعها الرمد منذ سافر، وساء حالها يوماً بعد يوم.

وأعد العشاء وجلسوا، ولعلمهم جلسوا من أجله حول مائدة لهم
من الخشب الأبيض. لم يأكل أحد. لم يأكلوا هم من حدة الفرح،
ولم يأكل هو من صدمة اليقظة. اعترف لي إسماعيل فيما بعد
بأنه حتى في اللحظة التي كان يجب أن تشغله سعادة العودة إلى
أحضان والديه عن القياس والمقارنة والنقد، لم يملك نفسه عن
التساؤل: كيف يستطيع أن يعيش بينهم؟ وكيف سيجد راحته في
هذه الدار؟

وأعد الفراش، وأبى الشيخ رجب إلا الانصراف إلى غرفته
ليترك ابنه يستريح من عناء السفر. وهذه أمه تجذب نفسها
جذباً وتهم بتركه، ولكنها تشير إلى فاطمة وتقول:

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

- تعالي يا فاطمة قبل أن تنامي أقطر لك في عينيك.

ورأى إسماعيل أمه وفي يدها زجاجة صغيرة، وترقد فاطمة على الأرض وتضع رأسها على ركلة الأم، فتسكب من الزجاجة في عينيها سائلاً تتأوه منه فاطمة وتتألم.

سألها إسماعيل:

- ما هذا يا أمي؟

- هذا زيت قنديل أم هاشم. تعودت أن أقطر لها منه كل مساء.

لقد جاءنا به صديقك الشيخ درديري. إنه يذكرك ويتشوق إليك. هل تذكره؟ أم تراك نسيته؟

قفز إسماعيل من مكانه كالملسوع. أليس من المجيب أنه وهو طبيب عيون، يشاهد أول ليلة من عودته، بأية وسيلة تداوى بمض العيون الرمد في وطنه؟...

تقدم إسماعيل إلى فاطمة فأوقفها، وحل رباطها وفحص عينيها، فوجد رمداً قد أتلف الجفنين وأضر بالمقلة، فلو وجد العلاج المهدئ المسكن لتماثلت للشفاء، ولكنها تسوء بالزيت الحار والكاوي.

فصرخ في أمه بصوت يكاد يمزق حلقه:

- حرام عليك الأذية. حرام عليك، أنت مؤمنة تصلين، فكيف تقبلين أمثال هذه الخرافات والأوهام؟

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

وصمتت أمه وانعقد لسانها. تحاول أن تتمم ولا تبين.

ورأى إسماعيل شبح أبيه على الباب، في جلباب أبيض قصير، وعلى رأسه طاقية تحتها وجه مربرد. هل يتوقع قلبه الحنون مكروهاً؟ ماذا؟ لعل في تصرفات إسماعيل وحركاته ونظراته ما أيقظ في نفسه منذ اللحظة الأولى بعض الريبة. ما هذا الصراخ؟ ماذا حدث؟

ونطقت أمه أخيراً تستمذ بالله وتقول له:

- اسم الله عليك يا إسماعيل يا ابني. ربنا يكملك بمملك، هذا غير الدوا والأجزاء. هذا ليس إلا من بركة أم هاشم.

وإسماعيل كثور هائج لوحث له بفلالة حمراء.

- أهى دي أم هاشم بتاعتكم هي الي ح تجيب للبننت العمى. سترون كيف أداويها فتنال على يدي أنا الشفاء الذي لم تجده عند الست أم هاشم.

- يا ابني ده ناس كثير بيتباركوا بزيت قنديل أم المواجز. جربوه وربنا شفاهم عليه. إحنا طول عمرنا جاعلين تكالنا على الله وعلى أم هاشم. ده سره باتع.

- أنا لا أعرف أم هاشم ولا أم عفرية.

هبط على الدار صمت مقبض كصمت القبور. في هذا البيت تعيش قراءة القرآن والأوراد. وصدى الأذان، كأنها جميعاً استيقظت وانتبهت، ثم أطرقت وانطفأت، وحل محلها ظلام

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

ورهبه... لا عيش لها مع هذه الروح الغريبة التي جاءت لهم من وراء البحار.

وسمع صوت أبيه كأنما يصل إليه من مكان سحيق:

- ماذا تقول؟ هل هذا كل ما تعلمته في بلاد بره؟ كل ما كسبناه منك أن تعود إلينا كافرين؟

كل ما فعله إسماعيل بعد ذلك يدل على أن المرض العصبي القديم قد عاوده فجأة، وانفجر بشدة جديدة. فقد وعيه وشعر بحلقه يجف، وبصدره يشتعل، وبرأسه يموج في عالم غير هذا العالم. شب على قدميه واقفاً. لا شك أن في نظرتة ما يخيف، فقد تضاءلت الأم أمامه وابتعد الأب عن طريقه. هجم إسماعيل على أمه يحاول أن ينتزع منها الزجاجاة فتشبثت بها لحظة، ثم تركتها له، فأخذها من يدها بشدة وعنف، وبحركة سريعة طوح بها من النافذة.

وكان صوت تحطمها في الطريق دوي القنبلة الأولى في المعركة.

ووقف إسماعيل حائراً لحظة، له نظرة تجوب ما حوله وتتقل من وجه أمه وفاطمة إلى وجه أبيه. وجد إشفاقاً وعطفاً، ولم يجد تسامحاً وفهماً، ربما استشف في نظرتهم بمض الرعب فتزايد هياجاً، وانطلق إلى الباب، وفي طريقه وجد عصا أبيه فأخذها ثم هرب من الدار جرياً، لن ينكص عن أن يطمئن الجهل والخرافة في الصميم طمئنة نجلاء - ولو فقد روحه.

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

وجاء رمضان فما خطر له أن يصوم. ابتداءً يطيل وقفته في الميدان وبتدبير: في الجوّ، في الهواء، في المخلوقات، في الجمادات كلها شيء جديد لم يكن فيها من قبل. كأن الوجود خلع ثوبه القديم واكتسى جديداً. علا الكون جو هدنة بعد قتال عنيف.

يحدث إسماعيل نفسه: لماذا خاب؟ لقد عاد من أوروبا بجمبة كبيرة محشوة بالعلم، عندما يتطلع فيها الآن يجدها فارغة، ليس لديها على سؤاله جواب. هي أمامه خرساء ضئيلة، ومع خفتها فقد رآها ثقلت في يده فجأة.

ودار بعينيه في الميدان. وتريثت نظرتة على الجموع فحتملتها. وابتداءً يبتسم لبعض النكات والضحكات التي تصل إلى سمعه، فتذكره هي والنداءات التي يسمها بأيام صباه... ما يظن أن هناك شعباً كالمصريين حافظ على طابعه وميزته، رغم تقلب الحوادث وتغير الحاكمين. «ابن البلده يمر أمامه كأنه خارج من صفحات (الجبرتي). اطمأنت نفس إسماعيل وهو يشعر أن تحت أقدامه أرضاً صلبة. ليس أمامه جموع من أشخاص فرادي، بل شمس يربطه رباط واحد: هو نوع من الإيمان، ثمرة مصاحبة الزمان، والنضج الطويل على ناره. وعندئذ بدأت تنطق له الوجوه من جديد بمعان لم يكن يراها من قبل. هنا وصول فيه طمأنينة وسكينة، والسلاح مغمد. وهناك نشاط في قلق وحبيرة، وجلاد لا

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

يزال على أشده، والسلاح مسنون. ولم المقارنة؟ إن المحب لا يقيس ولا يقارن، وإذا دخلت المقارنة من الباب ولى الحب من النافذة.

وحلت ليلة القدر... فانتبه لها إسماعيل، فني قلبه لذكراها حنان غريب. ربي على إجلالها والإيمان بفضائلها، ومنزلتها بين الليالي. لا يشمر في ليلة أخرى - حتى ولا ليالي العيد - بمثل ما يشمر به فيها من خشوع وقنوت لله. هي في ذهنه غرة بيضاء وسط سواد الليالي. كم من مرة رفع فيها بصره إلى السماء فبهره من النجوم جمال لا يراها تنطق به بقية العام.

وغاب لحظة في أفكاره، فإذا به ينتبه على صوت شهيق وزفير عميق يجويان الميدان. هذا هو سيدي المتريس ولا ريب. رفع بصره. القبة في غمرة من ضوء يتأرجح يطوّف بها. انتفض إسماعيل من رأسه إلى أخمص قدميه. أين أنت أيها النور الذي غبت عني دهرأ؟ مرحباً بك! لقد زالت الغشاوة التي كانت ترين على قلبي وعيني، وفهمت الآن ما كان خافياً علي. لا علم بلا إيمان. إنها لم تكن تؤمن بي، إنما إيمانها ببركتك أنت وكرمك ومنك. ببركتك أنت يا أم هاشم.

ودخل إسماعيل المقام مطأطن الرأس فأبصره يرقص عليه ضوء خمسين شمعة زينت جوانبه، والشيخ درديري يتناولها واحدة واحدة من فتاة طويلة القامة سمراء اللون، جمدة الشعر. هي نعيمة، قد زال انطباق شفيتها وبدت لها سنان وإن تكلمت فصف

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

من أسنان بيض كاللؤلؤ، تكفي النظرة إليها أن تنسي وجود كل
فبيع.

لقد صبرت وأمنت، فتاب الله عليها، وجاءت تفي بنذرها بعد
سبع سنوات. لم تقنط، ولم تثر، ولم تفقد الأمل في كرم الله.
أما هو الشاب المتعلم، الذكي المثقف، فقد تكبر وثار،
وتهجم وهجم، وتعالى فسقط.

ورفع إسماعيل بصره فإذا القنديل في مكانه يضيء كالمين
المطمئنة التي رأت، وأدركت، واستقرت. خيل إليه أن القنديل،
وهو يضيء، يومئ إليه ويبتسم.

وجاءه الشيخ درديري يسأله عن صحته وأخباره، فيميل عليه
إسماعيل يقول:

– هذه ليلة مباركة يا شيخ درديري، أعطني شيئاً من زيت
القنديل.

– والله انت بختك كويس... دي ليلة القدر؟ وليلة الحضرة
كمان.

وخرج إسماعيل من الجامع وبيده الزجاجاة وهو يقول في
نفسه للميدان وأهله:

– تعالوا جميعاً إليّ فيكم من أذاني، ومن كذب عليّ، ومن
غشني، ولكنني رغم هذا لا يزال في قلبي مكان لقتارتكم وجهلكم

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

وانحطاطكم، فأنتم مني وأنا منكم. أنا ابن هذا الحي، أنا ابن هذا الميدان. لقد جار عليكم الزمان، وكلما جار واستبد، كان إعزائي لكم أقوى وأشد.

ودخل الدار ونادى فاطمة:

– تعالي يا فاطمة! لا تيأسي من الشفاء. لقد جئتك ببركة أم هاشم ستجلي عنك الداء، وتزيح الأذى، وترد إليك بصرك فإذا هو جديد....

وشد ضميرتها واستمر يقول:

– وفوق ذلك سأعلمك كيف تأكلين وتشربين، وكيف تجلسين وتلبسين، سأجملك من بني آدم.

وعاد من جديد إلى علمه وطبه يسنده الإيمان. لم ييأس عندما وجد الداء متشبهاً قديماً. يجادله بعناد ولا يتزحزح. ثابر واستمر. ولاحت بارقة الأمل، ففاطمة تتقدم للشفاء على يديه يوماً بعد يوم وإذا بها تكسب في آخر العلاج ما تأخرته في مبدئه. فهي تقفز في أدواره الأخيرة قفزاً.

ولما رأها ذات يوم أمامه سليمة في عافية، فتش في ذهنه وقلبه عن الدهشة التي كان يخشاها، فلم يجدها.

وافتح إسماعيل لنفسه عيادة في حي البقالة بجوار القلال، في منزل يصلح لكل شيء إلا لاستقبال مرضى الميون. الزيارة

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

بقرش واحد لا يزيد. ليس من زبائنه متأنقون ومتأنقات. بل كلهم فقراء، حفاة وحافيات. والغريب أن شهرته استقرت في القرى المجاورة للقاهرة دون القاهرة ذاتها. فاكتظت داره بالفلاحين والفلاحات. يجيئون بهدايا من البيض والمسمل والبطل والدجاج.

كم من عملية شاقة نجحت على يديه. بوسائل لو رآها طبيب أوروبا لشهق عجباً. استمسك من علمه بروحه وأساسه، وترك التدجيل والمبالغة في الآلات والوسائل. اعتمد على الله ثم على علمه ويديه فبارك الله له في علمه وفي يديه. ما ابتغى الثروة ولا بناء العمارات وشراء الأطلال. وإنما قصد أن ينال مرضاه الفقراء شفاءهم على يديه.

وتزوج إسماعيل من فاطمة وأنسلها خمسة بنين وست بنات.

وكان آخر أيامه ضخمة الجثة، أكرش، أكلوا نهماً، كثير الضحك والمزاح والمرح، ملابسه مهملة، تتبعثر على أكمامه وينطلونه آثار رماد سجاثره التي لا ينفك يشعل جديدة من منتهية. وأصيب بالربو فاحتقن وجهه، وتنزى العرق على جبينه، وانقلب تنفسه إلى نوع من الموسيقى، وأصبح من يشاهده لا يدري أهو متعب أم متسريح. فلما احتبست ضحكاته في حلقه، اجتمعت في عينيه (فليس هناك عيون أقوى على التعبير من عيون المصدورين). يكاد يقفز منها إليك شيطان لعوب. كلها حب وفهم، فيها خبث وطيبة، وتسامح وإعزاز. وكأنها تقول لك قبل كل شيء:

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

- ليس كل ما هي الوجود أنا وأنت. هناك جمال وأسرار
ومتعة وبهاء. السميد من أحسها، فعليك بها عليك...

إلى الآن يذكره أهل حي السيدة بالجميل والخير، ثم يسألون
الله له المغفرة. مم؟ لم يفض إلي أحد بشيء، وذلك من شرط
إعزازهم له. غير أنني فهمت من اللحظات والابتسامات أن عمي
ظلّ طول عمره يحب النساء، كأن حبه لهن مظهر من تفانيه
وحبه للناس جميعاً.
رحمه الله...

الحي اللاتيني

سهيل إدريس (1954)

سهيل إدريس (1925 - 2008)، هو أديب وصحافي لبناني، ومؤسس مجلة الآداب. ولد في بيروت وتعلم في كلية فاروق الشرعية. عمل في الصحافة اللبنانية منذ عام 1939 ثم سافر إلى باريس وحصل عام 1952 على دكتوراه في الآداب من «جامعة باريس». هناك تعرّف إدريس على الوجودية وفكر جان بول سارتر، وأغرم به، وترجم سيرته الذاتية، كما ترجم «الطاعون» لألبير كامو و«هيروشيما حبيبي» لمارغريت دوراس. أنشأ مجلة «الآداب» عام 1953 التي دخل من خلالها معارك فكرية وشعرية عديدة، وما تزال مجلته هذه تصدر إلى اليوم تحت إدارة ابنه سماح إدريس. وفي عام 1956 أسس بالاشتراك مع نزار قباني «دار الآداب» للنشر، التي أصبحت إحدى أشهر دور النشر العربية. لاسيما في مجال الرواية، حيث أخرجت من مطابعها روايات لكبار الكتاب العرب. أحد أشهر الذين طبعت لهم «الآداب» نجيب محفوظ، الذي لجأ إليها حين منع جمال

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

عبد الناصر «أولاد حارتنا» في مصر. فأخذها سهيل إدريس، وطبعها في داره، وبدأ يرسلها إلى «دار مدبولي» في مصر ويتم توزيعها هناك. وهكذا كان لسهيل إدريس فضل تعريف القارئ العربي بالرائحة الروائية «أولاد حارتنا» التي طبعت عدة مرات. وسهيل إدريس من «مؤسسي اتحاد الكتاب اللبنانيين». مع المفكر الكبير قسطنطين زريق، وأدونيس، ومنير بملبكي، وانتخب أميناً عاماً له لعدة دورات.

أعماله:

- ◆ أشواق - قصص 1947
- ◆ نيران وثلوج - قصص 1948
- ◆ كلهن نساء - قصص 1949
- ◆ أقاصيص أولى - قصص 1977
- ◆ أقاصيص ثانية - قصص 1977
- ◆ الدمع المر - قصص 1956
- ◆ رحماك يا دمشق - قصص 1965
- ◆ المرء - قصص 1977
- ◆ الشهداء - مسرحية 1965
- ◆ زهرة من دم - مسرحية 1969
- ◆ الحي اللاتيني - رواية 1953

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

◆ الخندق العميق – رواية 1958

◆ أصابنا التي تحترق – رواية 1962

◆ سراب – «رواية» نشرت مسلسلة في جريدة بيروت المساء

عام 1948

◆ في معترك القومية والحرية – دراسة

◆ مواقف وقضايا أدبية – دراسة

◆ القصة في لبنان – دراسة

◆ دروب الحرية – ترجمة

◆ الفتيان – ترجمة

◆ سيرتي الذاتية لسارتر – ترجمة

◆ الطاعون – لألبير كامو

◆ هيروشيما حبيبي – ترجمة لمارغريت دورا

◆ ذكريات الأدب والحب – سيرة ذاتية 2005

◆ المنهل – «معجم» فرنسي عربي بالاشتراك مع الدكتور

جبور عبد النور.

لقد ترجم سهيل إدريس أكثر من عشرين كتاباً بين دراسة

ورواية وقصة ومسرحية.

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

الرواية:

ما صنع شهرة سهيل إدريس، هي رواياته الشهيرة التي كتبها من وحي مرحلته الباريسية بشكل أساسي وتلك الصدمة الثقافية التي عاشها هناك. «الحي اللاتيني» و«الخدق العميق»، وله مجموعات قصصية عدة. وهي تطرح قضية التصادم الحضاري وقضية الفرد والحرية والاستقلال عن ربة التقاليد المحلية وتأثير الثقافة الغربية على الشباب العربي.



واتجه همّه مع صديقيه إلى البحث عن غرف متواضعة تتناسب والمبلغ الذي كان كلّ منهم قد قدره لسكناء. وكان على يقين من أنه سيشمر ذلك الشهر بالضيق المالي، بسبب ما بذّره في شراء الكتب وارتياذ المقاهي، وبسبب هذه الآلاف الخمسة من الفرنكات التي سرقتها ليليان.

إنها لم تخابره في اليوم التالي، ولن تخابره بعد أبداً، بل لعلها لن تظهر في الحي اللاتيني بعد ذلك إطلاقاً. وإنه لمن حظه أن بقية ماله كانت مخبأة في محفظة ثانية، وإلا...

ومضى مع صبحي وعدنان إلى تلك المكاتب الكثيرة المنتشرة في كل حي من أحياء باريس، والتي تتولى إرشاد الراغبين في استئجار الغرف والبيوت أو تأجيرها. وانطلقوا يبحثون عن هذه العناوين التي نقلوها من سجلات تلك المكاتب، فضربوا في كل حي من أحياء باريس، بل تجاوزوها إلى الضواحي في القطارات،

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

ولكنهم لم يرتاحوا إلى أي من تلك الغرف التي شاهدوها. فبعضها كانت تموزها النظافة، وبعضها النور، وبعضها الدفء. وكان عدنان يقول إنه يريد غرفة تُشعره بصداقتها. ويردف موضحاً:

– أريد أن أحسن بهذه الصميمة التي توفر لي الثقة. والطمأنينة. فأنصرف إلى عملي راضياً.

وعلق صبحي على هذا القول:

– أعتقد أن هذه «الصميمة» إحساس تخلقه العادة، ولا ينشأ من الوهلة الأولى. وهذا يعني أنك ستشعر بالصميمة في أية غرفة تسكن فيها رداً من الزمن.

فلم يقتنع عدنان ولم يشأ أن يمضي في النقاش. وما لبثوا أن طرقت باب منزل في ضاحية «فانسين» أخذوا عنوانه من أحد المكاتب، ففتحت لهم سيدة لا يبدو أنها تتعدى الثلاثين من عمرها. ممشوقة الجسم، سمراء الوجه، ذات سحر وإغراء. وقد استقبلتهم باسمه مرخبة وأدخلتهم غرفة مؤثثة نظيفة. طلبت ثمانية آلاف فرنك أجراً شهرياً لها. ولكن الثمن بدا له ولصبحي غالياً جداً، فظهرت على وجهيهما سيمااء الخيبة. وأدهشهما أن يسما صديقهما عدنان يخاطب السيدة ببرودته الممهودة، فيعلن أنه يقبل بدفع هذا الأجر وأنه عائد صباح اليوم التالي ليقيم في الغرفة. ثم يسارع في دفع ألفي فرنك عربوناً يربط به صاحبة الغرفة خشية أن تؤجر سواها.

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

وما كادوا يفادرون المنزل، حتى التفت عدنان إليهما قائلاً
وهو يبتسم:

– تريدان الحق؟ لقد شعرت بصميمية هذه الغرفة سريعاً
فابتدره صبحي:

– بأسرع مما يُتوقع! لقد شعرت بصميميتها حتى قبل أن
تراها... أقصد منذ أن رأيت السيدة الفاضلة.
وانفجروا ثلاثهم ضاحكين.

أما هو وصبحي فقد أنفقا أربعة أيام كاملة من غير أن
يهتديا إلى غرفتين يرضيان عنها. ثم استقرا في فندقين
متواضعين متجاورين من فنادق الحي اللاتيني يشرفان على
«البانتيون» مقبرة العظماء الفرنسيين. وقد اختار صبحي غرفة
من غرف الطابق الثالث في «فندق البانتيون» بأجرة ستة آلاف
فرنك في الشهر. واختار هو غرفة من الطابق السادس الأخير
في فندق «ليفران زوم» بأجرة خمسة آلاف. والحق أنهما آثرا
النزول في هذين الفندقين لقربهما من السوربون وكلية الحقوق
اللتين كانا يستطيعان بلوغهما بأقل من خمس دقائق.

ثم اتجه همهما إلى تسجيل اسميهما في أحد مطاعم
الطلاب التي تقدم الطعام بمبلغ يسير لا يُرهق جيوب هؤلاء
الذين لا ينعمون إلا بمبلغ محدود من المال. يُرسل إليهم من
بلادهم. منحة من الحكومة أو مساعدة من الأهل لاستكمال

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

أسباب تحصيلهم المالي. وقد وفقا إلى الالتحاق بمطعم «لوي لوغران» التابع للمعهد الذي يحمل الاسم نفسه. والقائم قبالة السوربون في شارع «سان جاك»، وكانا يقصدان هذا المطعم مرتين كل يوم. يتناولان فيه الغداء والمشاء. أما فطور الصباح. فكانا يتناولانه في غرفتيهما بالفندق حليياً وشاياً وزبدة بيتاعانها من حانوت قريب. وإذ أجريا حساب نفقاتهما الشهرية. تبين لهما أن بوسعهما أن يخصصا ليوم الأحد من كل أسبوع نفقة استثنائية يصرفان بمضها في مطعم عام. وبمضها الآخر في مشاهدة مسرحية من هذه المسرحيات الكثيرة التي تعرضها المسارح الباريسية. والتي أشعرتهما بأن بلادهما. بل الشرق كله. محروم من نعمة عظيمة ينعم بها الناس في الغرب وينشدونها ويحرصون عليها. حتى لقد غدت حاجة حيوية من حاجات معيشتهم. وقد استثمرا أول الأمر راحة واطمئناناً لحياتهما تلك. تجري في نظام مرسوم. بين الجامعة والمطعم والفندق والمسرح والكتاب. ولكن لم يكد يمضي أسبوع واحد على إقامتهما في الفندقين حتى أحسنا بالضجر. وبأنهما قد أحاطا نفسيهما بسياج قاس توشك حدوده الضيقة ان تخنقهما. على أن أحدهما لم يجرؤ على مكاشفة صاحبه بهذا الشهور. كأنما كان يرى في ذلك اعترافاً بضعف. أو انتقاصاً من قدر نفسه.

وقد أدرك هو أن صديقه صبحي كان أسرع منه في العمل للتحرر من هذا الشهور وتحطيم هذه القيود. فقد ألفاه يخرج

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

على النظام الذي شارك في رسم خطوطه. فيمتنع أحياناً عن الذهاب إلى مطعم «لوي لوغران»، ويقصد المسرح في غير يوم الأحد. ويرتاد السينما متى عن له ذلك. ولم يكن صبحي ليخفي عنه شيئاً من أمره، بل هو قد روى له أنه تعرّف إلى فتاة من طالبات الحقوق بدأت تشغل فكره، وأنها قد صحبتته إلى أحد المسارح. وأن علاقته بها تتوثق يوماً بعد يوم.

إن صبحي لملى حق. إن هذه الصداقة التي تجمع بينهما لن تبلغ إلا أن تُبعدهما عن خوض الحياة ما عمقت واشتدت أواصرها. لكانها ملاذّ لهما من هذه الخيبة التي أصابها، أو خيل إليهما أنهما أصابها في الأسابيع الأولى من وصولهما إلى باريس. أو هي ملجأ من ذلك التهيب الذي يمسكهما دون الانطلاق في غمار هذه الحياة المتحررة التي لم يتموداها. لقد أدرك صبحي دون ريب أثر هذه الصداقة في ما هما مقبلان عليه. فاهتدى بفريزته إلى وجوب التحلل منها، أو إكسابها معنى آخر، غير هذا المعنى الذي يضيق الأفق ويزيد في الإحساس بالوحدة. ولم تراه يتردد في ذلك. وقد رأى صديقهما عدنان يختط لنفسه طريقاً حراً هو وحده الكفيل بأن ينمي شعوره بذاته، ويبلور إحساسه بشخصه؟ فلينطلق هو أيضاً. صبحي، في مثل هذا الطريق، ولعله لن يندم في سلوكه.

كان يدير هذا كله في ذهنه، وهو يلاحظ أن صبحي يبتعد عنه رويداً رويداً. ولقد استثمر لذلك بعض الضيق والأسى، ولكنه

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

لم يشأ أن ينحى باللائمة على صديقه أنه قد خلفه وحده، وتوقف عند معنى الصداقة يستكشف صفحاتها. أيكون من الصداقة أن يخلقا حلبةً محدودة تأسن فيها العواطف فيما هي تعمق؟ أليس كذلك هو شأن الصداقة هناك، في بلاده، في الشرق، في بلاد العرب؟ ما قيمة تلك الصداقات بين الفتيان والشبان؟ ما قيمة تلك الصداقات بين الفتيان والشابات في الشرق؟ إن تلك الصداقات لا تقوم حقاً على أساس من المحبة الخالصة. وإنما تقوم على أساس من الحرمان المتبادل... الحرمان المنتصب حداً فاصلاً بين المرأة والرجل، بين الذكر والأنثى. هكذا ينشأ الرباط بين شاب وشاب. وبين فتاة وفتاة، يُضْرَعُ كلُّ على رفيقه مدخور قلبه من العاطفة المكبوتة. فيحسب أنها الصداقة الخالصة وهي في الحق حب منحرف. ويكفي أن تتجه هذه العاطفة وجهتها الصحيحة فيجتمع الشاب بالفتاة. وتجتمع الفتاة بالشاب، حتى تنهار تلك الصداقات، أو تتزعزع أو اصرها على الأقل... وما أكثر ما ينسى الشاب صديقه في الشرق يوم أن تدخل في حياته فتاة، وما أكثر ما تنسى الفتاة صديقتها، يوم أن يدخل في حياتها شاب.

أما هنا، في الغرب، فإن الصداقة... لا، ليس لك أن تحكم بعد، فأنت لم تعرف صداقات الغربيين في ما بينهم. على أن بوسعك أن توفن بأن الصداقة ليست حياً مكبوتاً أصابه الانحراف.

وإذاً فإن صبحي لعلى حق. فليس هو بَمدُ في الشرق ليرتضي

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

التأكل بلهيب الصداقة المخنوقة. فليخرج إلى الدنيا الواسعة،
ولينس هذا الإخفاق الذي أصابه، فقد لا يكون إلا أثراً من
الشعور بالنقص ورثه لاوعيه من غريزة راسبة في أعماقه. أفيكون
إدراكك هذا كافياً لأن يدفمك إلى إقامة الصداقة بينك وبين
صبحي، بينك وبين أي إنسان، على قاعدة أخرى؟ ذلك هو
الامتحان الذي هو مدعوٌ إلى دخوله الآن.

وحين طرق عليه صبحي الباب في اليوم التالي، كانت
بصحبتة فتاة، زميلته في معهد الحقوق. وكانت فتاة فارعة
القامة. سوداء الشعر، مستطيلة الوجه، تشع قسماتها ذكاءً وجمالاً.
وكان صبحي يحدثها وهو يفيض سعادة وفرحة. وحين غادره،
كان على يقين من أن صداقته لصبحي ستصبح صداقة صحيحة
خالصة يوم يلتقي مثله بفتاة تُطلق مشاعره الحبيبة من عقالها
وتردّ أحاسيسه إلى موضعها الطبيعي من قلبه وروحه.

ولكن يقيناً، لم تكن هذه الفتاة التي التقى بها بعد أيام في
باحة الفندق، هي الفتاة التي كان ينشد لقاءها.

لقد غادر غرفته في الطابق السادس صباح ذلك اليوم، وهو
يُحسن رضئ وطلاقة، فاذا ببضع رسائل تطلّ من علبة غرفته في
لوحة الفندق، فاستخفت به الفرحة: رسائل من أهله وأصدقائه،
جلس في الباحة ليفضّها ويقرأها.

وكان يقلّب بين يديه رسالةً عليها طابع بريد الوطن ويتساءل
عمّن يكون مرسلها، حين أحسنّ بجسم غير بعيد عنه، على

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

المقعد الطويل ورفع بصره ينظر، وسرعان ما خفق صدره. كانت ذات عينين تتفجّران حيوية. وجرأة، وتحدياً. عينان يحسب أن عينيه لن تقاوما نظرتهما طويلاً إذا شاءتا أن تقابلاهما. وكان شمرها كستنائي اللون قصيراً، يُكسب الوجه مزيداً من نضارة الشباب.

ولم تُتَح له أن يمضي في تأملها، إذ مدّت ذراعها نحو الطاولة التي كان يجلس إليها، فتناولت جريدة، وقالت في لا مبالاة:

- هل هي جريدة اليوم؟

فالتفت حوله يتبيّن الشخص الذي خالها توجه إليه السؤال، فلم يَزْ أحداً. وعراه الاضطراب. إنها إذاً تسألني أنا بالذات. ونظر إليها، فإذا هي ترنو إليه.

وحين مدّ رأسه قليلاً ليقرأ تاريخ الجريدة، شمر بالدم ييمث الحرارة في وجنتيه وجبينه، فيحس لها بمثل وخز الإبر. وتأتى له أن يقول متلثمثاً:

- نعم تاريخ اليوم.

ورفع نظره، فجمدت عيناه في عينيها الرانيتين. يا إلهي... ما أعمقهما! ما أبعد قرارهما! أيّ إشعاع تبعثان؟!

- اعذرني... شغلتك عن رسائلك.

وهوجئ مرة أخرى بهذه المباراة. كان قد استعاد بعض

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

طمأنينته، حاسباً أنها سألته سؤالها وانتهى الأمر. ولكن يبدو أنها مصرّة على أن تحدثني. وأحس بمثل الرضى، على الرغم من أن الاضطراب لم يزايله. وقال متشجماً:

– أبدأ...

قالت، وليف بسمة يراود شفيتها الريانتين:

– لا بدّ أنها رسائل من أعزاء...

فسارع يقول:

– وكيف عرفت ذلك؟

– لقد رأيتك شديد الاستغراق فيها...

– إن إحداها من أمي، وبعضها من أصدقاء.

– أعتذر لك ثانية يا سيدي. إن فضولي قد يزعجك!

– على الإطلاق يا أنسة. بل هو دليل ذوق مرهف!

وأدرك سريعاً أنه قال العبارة الأخيرة دون أن يمينها أو يفكر فيها. وظلت مع ذلك تحدّثه وتهتم لحديثه. وأخبرته أنها تنتظر صديقة لها تنزل الفندق نفسه. وأحس بارتياح لحديثها، فهو بسيط طبيعى لا تصنع فيه، وشعر كأنما يعرفها منذ أشهر، حتى أنه لم يجد أي تردد أو هيبة في أن يدعوها إلى تناول فنجان «قهود تركية» في غرفته. ريثما تأتي صديقتها، فترددت قليلاً ثم قالت:

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

- إنك تفريني كثيراً بهذه «القهوة التركية». فقد ذقتها مرة في مطعم مراكشي، وما زال طعمها تحت لساني!

وضحكت وهي تنهض، فرقي بها السلم. وراحت تجيل نظرها في أرجاء غرفته، إذ بلغاها، ثم اتجهت إلى الرف الذي جعل عليه مكتبته، فأخذت تقرأ عناوين الكتب، بينما انصرف هو إلى إعداد القهوة. ورآها بعد لحظات تتحول عن الكتب فتقف أمام مصباح كهربائي صغير كان قد جلبه معه من بيروت، وهو يمثل إغرابيين صنما من مادة معجزة مطلية، وهما جالسان في زيهما البدوي يدخان «النارجيلة»... وظلت لحظات وهي تتأملهما بإعجاب، ثم انصرفت عنهما ودنت منه، وإذا بها تلقي يدها على كتفه بلامبالاة طبيعية وتقول بلهجة تودد:

- أحسب أنك لن تبخل عليّ بهما... كهديّة!

وعجب هو نفسه كيف تأتي له الجواب بسرعة:

- أعتذر عن الاضطرار لرفض طلبك يا أنسة... إنني لا أستطيع أن أهديهما إلى أحد.

- ولماذا؟ أهما هدية لك؟

- لا... وإنما...

وكاد يُمجزه الجواب، ولكن التماعاً ذهنية أنقذته:

- وإنما لا أودّ أن يفارقاني. إنهما يحرسانني.

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

فانفجرت ضاحكة:

- وممّ يحرسانك؟

قال بسرعة وهو يحدد فيها بصره:

- من الأخطار الكثيرة التي تحيط بي هنا... في باريس.

ورأها فجأة تشتد دنواً منه، وقد غاضت عن وجهه البسمة،
وتقف قبالة تحديق فيه.

- وأنا... أعتبرني من هذه الأخطار؟

وتعذرت عليه الإجابة هذه المرة، فهو لا يدري أية قوة
جذبتة في عينيها الممغنطتين. وظل لحظات ينظر فيهما، في
أعماقهما البعيدة، ثم خانته قوة البصر فأغضى. واستطاع أخيراً
أن يتمتم:

- إن في عينيك وحدهما كل أخطار الدنيا!

فضحكت، وزاد دنوها منه، أو كأنما هي ضحكت لتبرر دنوها
وشعر بصدوره يخفق إذ أحس بشفتيها تلامسان خديه ملامسة
رقيقة، وهما تهمسان:

- وشفثاي؟

فلم يجب. لأن شفثيها كانتا للتقبيل، للارتشاف، لإسالة
الرضاب في الفم. كانتا لتعانق الجسم الذي يحملهما، ليُصهر في
الذراعين، ليحرق في الصدر الأنفاس، ثم ليجزّد من ثيابه قطعة

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

قطعة، ويلقى على السرير، بل ليستلقي هو نفسه، نابضاً ناضراً
يضج بالنداء. وشفها تلك، كانتا بعد، لتُخمد اللهاث الراعش،
في غمرة اللقاء الأعظم.

ولكن... ما بالها، هي مارغريت، تسارع بالنهوض ثائرة
الأعصاب متقلصة القسما، تتمم كلمات لا تبين. ولا تنم إلا
عن غضب مكبوت وحنق تحاول جهدها أن تكظمه؟ وإذا اقترب
هو منها ممثلاً عجباً، نقرت تقول:

– ابتعد عني... كلكم هكذا أنتم الرجال... أنا نية قدرة!

وارتدت ثيابها على عجل، ثم فتحت باب غرفته، وخلفته في
عجب يكاد يتحول إلى بلاهة.

والحق لم تكن له في ذلك حيلة، فقد كان في عينيها
الزرقاوين صفاءً لم يمهد في عينيها قبلهما. وكان يحس، وهو
ينظر فيهما، أن نظراته تستحم في مياهما الدافئة، بالرغم من
أنها نظرات خاطفة هاربة، بل من أجل ذلك بالذات. وقد شعر
بهذا منذ التقت عيناه بمني جانين للمرة الأولى، فكان كل همه
بعد أن يجتذب هذا النظر الهارب، ويثبت في نظره، حتى يتاح له
أن يسبر أغواره. وكان الفتاة إذا أغضت قد أدركت ذلك،
فصرفت عنه هذا النظر الذي يود أن يحتفظ بأسراره.

وكان قد التقى بها بعد ظهر اليوم التالي، في إحدى
المكتبات بشارع «مسيو لوبرنس» وكانت واقفة تقلب كتاباً في ركن

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

من المكتبة، فمررها من شمرها الأثقل، و حار طويلاً كيف يكلمها. ثم أخذ ينتقل ببطء حذاء الرهوف حتى بلغ موقفها، فقال بلهجة خفيفة:

- كيف حال الجارة التي ما كادت تملن اسمها حتى ندمت؟
فالتفتت مبغوتة، ولكنها سرعان ما أجالت بسمتها الحلوة على شفيتها إذ عرفته وقالت:
- أهذا أنت أيضاً؟
فأجابها بسؤال سريع:
- أكون مفاجأة غير سارة؟
فترددت لحظة قبل أن تقول:
- لم أقل ذلك... وإنما...

وتعلق بشفيتها، ينتظر أن تتما، ولكنهما ظلتا مطبقتين، بل هي قد زمتها بقسوة، كأنما كانت تخشى أن تفلت منهما كلمة لا تريد أن تنطق بها. على أن وجهها ما لبث أن احتقن بالدم، وسألته بلهجة حرصت على أن تكون مكبوتة، كأنما كانت تخاف أن يتبته إليهما أحد:

- ولكن لماذا؟... لماذا؟...
وتوقفت هنيهة، ثم قذفت:
- ما عساك تريد مني؟ لماذا تلاحقني منذ يومين؟
وخشي أن يشمر من هذه المباراة المفاجئة بانخزال في

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

ساقيه، فاعتمد بكفه على منضدة قريبة رُصت عليها الكتب، ثم أحس بقدميه تستديران، وانقتل بجسمة على مهل، ومضى فنادر المكتبة ملثات المشاعر.

ولكنه لم يلبث طويلاً حتى سمع صوتها خلفه، يناديه باسمه، وحين التفت، كانت قد بلغت، فإذا هي تقول له بصوت ينبض بالندم والأسى:

– أعذرنِي، أرجوك. لقد أسأت معك الأدب، وقابلت لطفك بجفاء، أرجو أن تغفره لي.

فاستشمر من ذلك الخجل، وهمّ بأن يمتذر لها، كأنما كان هو المخطئ، أو كأن مسلكه هو الذي دفعها إلى هذا الخطأ، على الأقل، وآثر أن يلزم الصمت فترة من الزمن، يفكر فيها بالخطوة التالية. ولا ريب في إنها عللت صمته على غير حقيقته، إذ قالت:

– أراك لا تتطرق بشيء. كأنما يمز عليك أن تسامحني..

فسارع يجيب:

– العفو يا أنسة جانين. إنك لم تسيئي إليّ حتى تستمحييني المذرة وأدرك أنه يجاملها، ويتجاهل حقيقة كانت ظاهرة كالنهار. ولكن هذا كان دأبه: لقد كان يشق عليه أن يشعر امرؤ أمامه بالخرج، فإذا قصارى همه أن يتيح لهذا المرء الفرار من ذلك الخرج واستعادة المزة النفسية. وهو مدرك أن هذا ضعفٌ فيه، إذ هو يفتون عليه كل فرصة بإعلان النصر. وأياً ما كان، فإنه هنا لا يبغى الانتصار على هذه الفتاة، إنه يريد أن تبقى إلى

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

جانبه فترة من زمان، أن تُشمره بجنانها، أن تبت في نفسه الباردة بعضاً من دفء. فأخِر بك إذاً أن تتغاضى وتتجاهل وترتد إليها شاكراً أن تتيح لك فرصة أخرى للحديث.

وارتد إليها وقال بلهفة:

– أقبليْن أن تتناولي ممي الشاي في مقهى قريب؟

فعاودها التردد، ثم حال ترددها إلى ارتباك. وفهم أنها قرأت على وجهه سيماء الخيبة، فشاءت أن توفرها عليه، ولو بتكلف، إذ قالت:

– لا مانع عندي من ذلك، على ألا نبقي وقتاً طويلاً.

وحين دخلا مقهى «لاسورس» وجلس قبالتها، ونظر في عينيها الزرقاوين الصافيتين، شمر بأنه مقبلٌ مع «جانين مونثرو» على عهد جديد من حياته، لا يدري من أمره إلا أنه جديد.

ولم يخب ظنه بصفاء نفسها ونقاء سريرتها. لقد حدثها بكل بساطة، واستمع إليها تتكلم مع سجية نفسها، من غير تكلف.

وقد أدهشه أن تكون جانين، تلك الفتاة المترددة العائرة المتقبلة التي عرفها من قبل، هي جانين نفسها، هذه الهادئة الرهيقة الواثقة من نفسها. لكأن ذاتها الأولى كانت مصطنعة، وكأن هذه هي ذاتها الطبيعية.

وعجبت بعض العجب حين أخبرها أنه من الشرق العربي،

وقال موضحة:

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

- لقد أنبأتني تقاطيع وجهك أنك لست أوروبياً، ولكنني لم أحس بأنك عربي.

ثم روت له بأنها قرأت بعض ما كتبه أدباء فرنسيون زاروا الشرق، كلامارتين وغوتيه وفلوبير. وأضافت ان ما كتبه فلوبيير خاصة قد أثار حنينها يوماً إلى زيارة الشرق ورؤية الجمل والنخيل والصحراء.

وكان هو شديد الرغبة في أن تحدثه عن نفسها، وقد خُيل إليه لحظة انه شديد الانانية بأن يدعها هذا الوقت الطويل تتحدث عن بلاده دون أن يسألها عن شؤونها. ثم لاحظ انها تحاول دائماً أن تتفادى التحدث عن نفسها، وتصرف الكلام كل مرة إلى جهة أخرى، كأنها تحرص على أن تستبدده أبداً عن كل ما يمسه ولا تود أن تتيح له فرجة ينفذ منها إلى حياتها الخاصة.

كان يدير هذا كله في فكره حين سأله:

- أنت إذاً شرقي؟

- نعم من لبنان، وأنت، هل أنت باريسية؟

- لا، إنني من الإلزامس.

وأغضت جانين مونترو، فأدرك هو أن نظراته المحددة قد أذتها. وتلبث قليلاً ثم سألها:

- وهل أنت في باريس منذ وقت طويل؟

فبدا عليها الضيق. لا شك في أن إلحاحي قد أزعجها. ينبغي لي أن أتخفظ بعد. وفاجأته بنظراتها الصافية مرة أخرى. ثم قالت بلهجة بدت فيها سرعة واضحة أنها قدمت حديثاً إلى باريس من قرية صغيرة بالإلزاس، لتتخصص في الصحافة بإحدى مدارس العاصمة، وأنها وصلت منذ أيام فقط، واستأجرت غرفة في ذلك الفندق ريثما تبحث عن أسرة فرنسية تنزل لديها. ذلك هو كل ما قالته له. ولم يخف عليه أنها كانت تقصد إلى الاقتضاب قصداً، كأنما كانت تحذره من أن يلتمس المزيد، وعلى قدر ارتياحه إلى أنها طالبة. مثله، شقَّ عليه أنها الآن تبحث عن غرفة لدى أسرة فرنسية. إنها إذاً ستفادر الفندق عما قليل، وتخلفه مرة أخرى في تلك الوحدة التي حسب أن شبعها المخيف بدأ ينجاب عنه رويداً.

وهمَّ بأن يعبّر لها عن هذا الشعور، ولكنه استدرك نفسه، إذ تذكر احتراسها، وبخلها، وحذرهما. وأثر أن يدع ذلك الأمر إلى المقادير. ثم انثنى يتحدث عن نفسه وعمّا لقيه من صعوبات في أيامه الأولى بالعاصمة، وذكر دروسه وكتبه والرسالة التي يُعدها في الشمر المرابي الحديث. وقد كان يوغل في الحديث كلما أنس في عيني جانين اهتماماً بأخباره وعناية بالاصفاء له.

وكان يحسب أنه نجح في هدم ذلك الجدار من التهيب والحيطلة الذي كان قائماً بينهما، إذ فاجأته بالنهوض، وبأن عليها أن تتركه في الحال. يا ألهي! أي مزاج هذا! أيكون هذا

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

التردد والقلق والحيرة هي طبيعتها الحق؟ أو يكون حديثها الأول إليه، وإرهاف سمعها إلى حديثه، واهتمامها بأنيابته، أياكون ذلك كله هو التصنع الذي ليس في طبيعتها؟

على أنه لم يسقط صريعاً تحت هذه الضربة الجديدة. فهو قد اعتاد في هذين اليومين هذه الكلمات المفاجئة، وقد بات في طوقه أن يحتاط لها ويواجهها، أو يداريها على الأقل. فلتبقي إذاً جالساً، وإن نهضت جانين، ولتاخذ بالريث والإبطاء، ولتقل لها بتؤدة:

- ولكن علامَ المجلة، يا أنسة جانين؟

فأجابته:

- إنه موعدٌ مع زميلة لي من طالبات الصحافة.

ثم مدت يدها توذّ مصافحته، فأدرك أن البطء لا يجدي أمام هذه الكف المبسوطة، ولم يسمه إلا أن ينهض، فيقول لها، وهو يتناول كفها:

- حسناً... ولكن متى نلتقي مرةً أخرى؟

فاشتد بريق عينيها، وإن كان صفاؤها قد اغتلم، وأجابت في ضيق، وبعد ترذد طويل لم تنجح في إخفائه أو تبريره:

- أخشى ألا يكون ذلك في استطاعتي مرةً أخرى.

وهي اللحظة نفسها، سحبت كفها من كفّه، كأنها شعرت بأن أمد التقائهما كان أطول مما قدرت، ثم ابتسمت له بسمةً أدرك

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

سريعاً أنها كانت تنبض بالتكلف، إذ استعاد طيف تلك البسمة
السمحة العذبة التي كانت ترتسم على شفثيها من قبل.

وانطلقت جانين مونثرو عجلي، دون أن تَمدّه بلقاء.

أية فتاة هي!! إنك ما تني تتساءل! ولم تراك تُفرق بعلامات
الاستفهام هذه، شخصها هي! لِم لا ترقد ببصرك إلى نفسك
أنت؟ أنا أحسب أنك وقعت في خطأ لك ممهود. مرةً أخرى،
قذفت نفسك كلها في الحلبة، إذ حدثتها عن ذاتك ذلك الحديث
الطويل فلم تستبق منها غامضاً يُفري. ما أسهلك من كتاب، وما
أيسر قراءتك! تقول إنك صادق مخلص، وإنها سجية نفسك؟
انظر إذأ إلى العاقبة! أم تُراك قد زلت إذ أنبأتها بأنك من
الشرق العربي! ما يمنمها من أن تُجيل في خاطرها كل ما سمعت
أو قرأت، عن مساوئ العربي، فتحسبها ممثلةً فيك! ألا ترى
الغربي يخاف دائماً هذا الشرقي. هذا العربي، النابح من رمال
الصحراء، المائش في حضارات القرون الوسطى؟ وفلوبير نفسه،
هذا الذي حنت، هي جانين، إلى الشرق بتأثير ما كتبه، ألم يكن
حريصاً على تصوير نواحي التأخر والحيوانية في حياة أهل
الشرق؟

وتناول فنجان الشاي، فاذا هو فارغ، ومع ذلك فقد وضع
حافته بين شفثيه، وعلى صفحة الفنجان، خُيل إليه أنه يرى دنيا
تنبسط أمامه... جمالاً وصحراء... صحراء شاسعة، شاسعة، دون
بلوغ واحتها سراًب كثير...

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

ثم غادرت «جانين» باريس إلى مقاطعة «الهوت سافوي» لقضاء أسبوع الميلاد لدى خالتي لها هناك. كانت تحبها وتلح عليها منذ غادرت قريتها بالإلزام، في أن تزورها وتنزل ضيفة عندها لبضعة أيام. ولم يدر لماذا لم يثنها عن عزمها على القيام بتلك الرحلة، بل هو قد عَجِبَ أنه شجفها عليها، لغير ما سبب واضح.

ولكنه أدرك، منذ اليوم الأول الذي غابت فيه جانين، أنه إنما حثها على الذهاب ليمتحن نفسه. وسرعان ما شعر بأنه امتحان عسيرٍ لحبه. كان يُحس كيفما توجه أنه ضائع. كأنما فقدَ قسماً من ذاته راح يبحث عنه دون ما جدوى. وكان العيش في وقائع ذينك الأسبوعين عزاءه الوحيد من حاضره هذا القاحل. ووعى من غير مشقة أن هذه الفتاة الفرنسية قد استأثرت بوجوده طوال تلك الأيام..نجحت في أن تسلخه عن عالمه، وإن لم يكن راضياً عنه.

واستشعر ببعض الخجل إذ ذكر أصدقاءه، هؤلاء الذين كان أقرب إليهم من ظلهم، لأيام خلت. حتى صبحي، هذا الذي ينزل في الفندق المجاور، لم يره منذ عشرة أيام. وفؤاد... وشعر بالدم في وجنتيه خجلاً. أي حب هذا! بل أية فتاة، هي جانين، لتصرفه عن ذلك الصديق الذي استأثر بفكره وعاطفته جميعاً. منذ أيام قليلة؟ لقد كان يُحس بغموض أن صديقه يشق له أفاقاً جديدة من وجوده كان يفشاها ضباب كثيف. أيكون هذا وهماً استحوز

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

عليه. إذ ما كادت جانين تدخل حياته، حتي غابت تلك الأفاق،
أم أن حبه هذا، طواه على ذاته من جديد، وأغلق عليه جوانب
القوامة؟

على أن أشق إحساس عليه وألمه، إنما أورثته في نفسه تلك
الرسالة التي وصلتته من أمه بعد ظهر ذلك اليوم بالذات. لقد
شعر بشبه دُعر، حين فض الرسالة فوق نظره على خط أمه. لا،
هو لم ينس أنها كانت مريضة، وأنه عزم على أن يبرق لذويه
مستفسراً يوم التقى بجانين ذلك اللقاء، ولكنه جعل يرجئ الكتابة
إليها يوماً بعد يوم، ثم ما قد فاتته أن يكتب، وما هي ذي أمه
الحببية عاتبة أن كلمة منه لم تبلغهم ذلك الأسبوع، بينما كانوا
يترقبون أن يوافيهم، بدلاً من رسالته الأسبوعية الممتادة،
بأثنتين.

وجلس يكتب إلى أمه، ينتابه شعور كشمور المذنب يسمي إلى
تبرير نفسه. حدثتها عما خلفه نبأ العملية التي أجريت لها من
ضيق وقلق في نفسه، ثم روى أنه كان ينوي الإبراق لهم، ولكنه
أثر المدول، توفيراً للنفقات... وأدرك أن كذوبته هذه هي التي
أشمرته بهذا الوخز، كمثل وخز الإبر، في جبينه وجلدة رأسه.
وتساءل في همّ زاهر: لِمَ يكذب، ولِمَ لا يصارح أمه، وهي خير
من يحبه، بحقيقة الأمر؟ لِمَ لا يحدثها عن جانين، هذه التي
تملاً الآن حياته بالسعادة؟

وابتسم في سخرية مريرة. أنى لأمه أن تقره على شيء من

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

هذا؟ وماذا عساه يفيد بعد من إطلاعها على ذلك الأمر؟ أما كان يمشي من بيته في جوّ خانق؟ أكان يستطيع أن يخفي على ذويه وعلى أمه خاصة، أي سر صغير؟ ألم تكن حياته نهياً مشاعاً لهم؟ أكان بوسعه أن يشمر بالاستقلال في حياته، وبالحرية في مسلكه؟ وهذا الفرار إلى باريس، سوق حياة خاصة يشمر أنها له، أنها حياة حميمة لا تعني أحداً سواه؟

ومضى في رسالته، وسالت تحت قلمه الكلمات: عملٌ مرهق، ومطالمة مستمرة، واستفراق في المراجع، ومناقشة للأساتذة في تفصيل موضوعات الأطروحة... وبعد ذلك، وعدّ بالموودة إلى الرسالة الأسبوعية الممتادة، وسؤال عن أفراد الأسرة واحداً واحداً، وختاماً من القبلات والأشواق.

وطوى الرسالة في زفرة، وأودعها في مغلف، وغادر الفندق، وفي مركز البريد، غير بعيد عن السوربون، التقى بصبحي فبادره صديقه بما لم يكن ينتظره منه. لم يمتب عليه صبحي، ولم يسأله عن غيابه ذلك الطويل، وإنما اجتزأ بالقول:

– رأيتك مرة، وأنا في ناهضة غرفتي بفندق البانتيون، خارجاً برفقة فتاة شقراء الشمر، فقلت في نفسي: «إن هناك من يشغله عنّاء، ولهذا قررنا، عدنان وأنا، أن نطلق لك الحرية كلها، وقلنا: «إن كان يبغي لقاءنا، فهو ساع إلينا لا محالة».

فلم يجد إلا أن يبتسم. وشمر أن بسمته لم تخلُ من بلاهة فقال:

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

- لا أكتفك يا عزيزي إن هناك من يشغلني، وأنت، ما أنباء
فتاتك السويدية، وزميلتك طالبة الحقوق؟

- أما السويدية فقد أصبحت من التاريخ القديم، ولست أدري
إن هي عادت إلى بلادها أم لا... إن بلادها باردة جداً أيها
المزيز!

فضحك هو بدوره، ثم سارع يسأله، ليوفر عليه الإيضاح:

- وأما الزميلة المحترمة؟

- ما زلت أتوكأ عليها في الطريق! وهذا لم يحل دون
مغازلتي زميلة لها من كلية الطب!

وأردف صبحي وهو يقهقه:

- من يدري... فقد أصاب قريباً بصداع الملل، فتشفييني
طالبة الطب!

وخرجا من مكتب البريد محبورين. على أنه شعر وهو يذكر
كلام صديقه بامتراض قليل نجح في إخفائه. لقد طفرت جانين
فجأة إلى مخيلته، فأذاه أن يضغها على صعيد واحد مع هاتيك
الفتيات، وأذاه أيضاً أن يفكر أن بوسمه يوماً أن يقف من جانين
هذا الموقف الذي يقفه صديقه من فتياته. أي فحش هذا وأي
فجور!

ثم خشي أن يظلم صديقه بهذا الحكم. لعل الذنب ليس
ذنبه.

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

أتكون هاتيك الفتيات مثل جانين؟ وبرم مرة أخرى، أنه اضطر إلى مقارنتها بهنّ. وحزره صديقه من اضطرابه إذ سأله:

– هل أنت عائد إلى فندقك؟ أما أنا فذهاب إلى «الكابولاد»، للقاء بعض الأصدقاء، فهل ترافقني؟

ولم يكن يدري إلى أين ينبغي أن يذهب، ولكنه تذكر فجأة «فؤاد»، فسأله صديقه عنه:

– عجباً لم أفطن إلا الآن إلى إننا لم نره في «لوي غران» منذ بضعة أيام...

وودع صبحي، دون أن يسأله شيئاً. واتجه إلى شارع «غي لوساك».

ولم يخنّه حدسه، فقد كان فؤاد في فراشه يشكو الضنك.

ورحب به صديقه الأثير بابتسامة شاحبة من أثر المرض، ودعاه إلى الجلوس. وقد وجد هو من الخارج والضيق في مواجهة صديقه بعد هذه الغيبة الطويلة أضعاف ما وجده في الكتابة إلى أمه. ولكنه إذ نظر برقة في عيني فؤاد، سقط هذا الضيق كله، وسُري عنه. فلم يتردد في أن يكشفه بكل ما حدث له. ولم يشعر أنه يؤدي بذلك له حساباً، وإنما كان على يقين من أنه لن يجد أشد إخلاصاً له من فؤاد، وقال له في عبارة لمس فيها لهجة النبوءة:

– أراك تحبها حباً صادقاً، فلا تندم ولا تتردد. إن هذا الحب كفيل بأن يصهر النفس ويزيل عنها كثيراً من أدرانها... ومثل هذا كان حبي الأول...

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

وأيقظته عبارة فؤاد الأخيرة، فنظر إليه في تطلع ودهشة.
عجباً! كيف لم يخطر له مرة أن يسأل صديقه عن شجونه
الغرامية، كأنما أقرّ هو إذًا.

وشاء أن يفادر غرفة صديقه بعد وقت قصير، حرصاً على
راحته، ولكن «فؤاد» استبقاه وهو يقول له إن الضنك بدأ يولي
عنه الآن وأضاف إلى ذلك:

– لا أدري سبب هذه الرغبة الشديدة في أن أروي لك بمض
حكاياتي الغرامية! وقد شغفته ليلتذاك تلك الحكايات التي ظل
صديقه يرويها له حتى ساعة متأخرة، وكان في ضميره، وهو
يستمع إليها، شبه إيمان بأنه لا بُد سيفيد منها في ما هو مقبل
عليه من أمر حبه. وأخذته العجب أن يكون فؤاد قد بلا، وهو في
مثل سنه، هذه المحن الكثيرة التي واجهته بها الحياة، ففرق في
الرديلة إلى أعماق درك، وسما في الحب إلى أسنى مرتبة، وكان
في الأمرين جميعاً واعياً تجربته أشدّ الوعي. ولولا أن لصديقه
في نفسه منزلة لا يتطرق إليها ضمف النفوس، لأحس له بالفيرة
بل بالحسد من أن يكون قد تزود من تجارب الحياة بما لم
يتزوده هو، المتفوق عليه في حساب الرتب العلمية!

وأدهشه في تلك اللحظة بالذات أن يقول فؤاد، وكأنما حدس
بفكرته، وإن كان موقتاً أنه لا يعنيه:

– إن الكتاب أعجز من الحياة في ميزان التجارب الإنسانية.
وإن هذه السنوات الثلاث التي قضيتها هنا قد علمتني من شؤون

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

الوجود ما لم يعلمني إياه الأدب والفلسفة، ولكنني واثق مع ذلك من أن تجاربي هذه هزيلة مضحكة إزاء تجارب الذين هَيُّؤُوا لمواجهة ألوف المحن والبلايا!

وألقى نفسه يسأل صديقه، بمد لحظات، سؤالاً حسبه محرراً:
- ولكنني لا أراك الآن في علاقة مع امرأة فهل يعني أنك رويت واكتفيت؟

فضحك فؤاد وأجاب:

- لن أروي من امرأة أبداً. إن حاجتي إليها لشديدة، كحاجتي إلى الكتاب سواء بسواء...

كف لحظة ثم أردف مستضحكاً:

- ثم ما يدريك أيها العزيز أنني لست الآن في علاقة مع امرأة؟ أم تراك تريدني أن أتباهى بالظهور معها، هنا وهناك، كما يفعل بعض الرقعاء من مواطنينا الكرام؟

- أوه... لو حضرت قبل أن تحضر بنصف ساعة، للقيت هنا «فرانسواز»... وأياً ما كان. فلا بد من أن أعرفك بها يوماً... وأحسبها تمجيبك!.

فلم يتردد هو لحظة في أن يعقب بقوله:

- ولا بد من أن أعرفك أنا أيضاً بجانبين يوم تعود من فرصتها ولا شك في أنها سترضيك!

وفهم أن صديقه يجامله حين قال له:

- لا أرتاب في ذلك، فأنا مؤمن بأن لك ذوقاً سليماً!

وسادت بينهما لحظة صمت، ما لبث فؤاد أن قطعها موضحاً:

- قلت إن حاجتي إلى المرأة شديدة. ولكن هذا لا يعني أنها لا تزال هي همّي الأول... لقد كانت كذلك يوم وصلت إلى باريس. أما الآن، فإن لي هموماً كثيرة أخرى. ليست المرأة إلا أحدها. ولست لأنكر أنها تعينني كثيراً على مواجهة سائر هذه الهموم. وأنا أعتقد على كل حال أن أهدنا لا يبلغ استفلال إمكانياته كلها، أو أكثرها، إلا إذا كُفيت حاجاته كلها أو أكثرها...

وتساءل فؤاد بعد ذلك في وضوح وإصرار:

- ألا تعتقد أن كثيرين من شبابنا العربي، هنا وفي الوطن، محرومون من استفلال أسمى إمكانياتهم لأن حاجاتهم في الحب والجنس غير مكفية؟

وبينا كان يومئ برأسه إيجاباً، وما كان له أن يفعل غير ذلك، أخذ صديقه يسهل، ثم اشتدت عليه نوبة السعال حتى تشنّج لها وجهه واحمرت عيناه، وحين انحسرت عنه قليلاً تمتم في مثل الاعتذار:

- ما زلت أحزم أمري على وجوب الإقلاع عن التدخين، أو الحد منه على الأقل، ولا سيما تدخين مثل هذه اللفائف الثقيلة «الفولوازه». وما أشد حسدي لك أنك لا تدخن!

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

وكان هو قد نهض يُمدّ لصديقه فنجاناً من الزيزفون،
ويقدمه إليه ساخناً يتصاعد منه البخار، وينصح له بأن يتناول
معه قرصاً من الأسبرين.

وهذا فؤاد بعد دقائق، وعاد إلى عينيه صفاؤهما، فاستأذنه
بالذهاب ووعد بزيارته في اليوم التالي، متمنياً له ليلة شافية.

وإذ لفظته غرفة صديقه، واستقبله «غي لوساك» شعر بأن
شيئاً كالمبء ينزاح عن كتفيه. ولا يدري أي إحساس هذا، ولكنه
يدرك الآن فقط انه أحس به من قبل أيضاً، ولعله كان يشعر بأن
هذا المبعء يثقل على كتفيه كلما التقى بفؤاد، ثم ينزاح عنه كلما
فارقه. وكأنها قطعة من وجود صديقه تنفصل عنه وتتجه إليه
لتشعره بأن حياته ينبغي أن تضطلع بتبعة وتحمل مسؤولية وتسمى
إلى غاية. ذلك ما كان يحس به كلما اجتمع إلى فؤاد، أما الآن
فها هو ذا يفارقه، فيماوده الشمور بهذا العموم والطنف فوق أي
ثقل. إنه يكاد يلمس بيديه هذا الفراغ الذي يستخف به، فإذا هو
يمضي في طريقه خفيف الخطو، كأنما لا يحس الأرض تحت
قدميه.

وكان يفكر بهذا حين شعر بأن قدميه، هاتين القدمين،
تتستمران حيث وطئتا، وإذ تنبّه إلى ذلك، ألقى نفسه واقفاً من
فتدقه في الممر الذي يفضي إلى غرفة جانين.

وخفق صدره، وانتابته رعشة، وانساق في الممر بشبه لا وعي،
حتى إذا بلغ باب الغرفة الموصدة، وضع يده على المقبض

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

وحاول أن يفتله، فظل المقبض جامداً لا يلين. ومع ذلك، فقد خيل إليه أن الباب يفتح. وأنه يدخل الغرفة. فتستقبله جانين بذراعين مفتوحتين، وتضمه إليها بشدة، ثم تدس رأسها في عنقه، فينبعث في أنفه عبير من شمرها خاطف يزيد لهفة إلى تشم ذلك الشعر المسترسل الرقيق، ثم يسمع صوتها يهمس باسمه. فيتناول شفيتها. تينك اللتين همستا باسمه ويشمر بأن كيانه كله يتجمع في شفتيه... وتمضي لحظات، يرى في أثنائها النماس يهؤم على جفني جانين. فيرد على جسمها الغطاء، ويطفئ النور. ثم يخرج مفلماً خلفه الباب.

وشمر بيده ما تزال على المقبض الذي لا يلين، فجذبه نحوه، كأنما ليستوثق من إغلاق الباب، ثم ينفتل فيجتاز الممر ثانية، ويدرك السلم فيرقاه حذراً. يسترق الخطى استراقاً، كأنما يخشى أن يوقظ أحداً، أو أن يراه أحد.

هذه الغيبوبة التي شاء الاستفراق فيها لينسى التفكير بالغد وبالعودة، غده وغد جانين، وعودته القريبة إلى باطن الوطن لقضاء فصل الصيف، هذه الغيبوبة قتلها رسالة أمه التي تلقاها ذلك الصباح الربيعي المشرف.

وقد اعتصرت الرسالة قلبه، إذ حملت إليه نبأ حاول ذووه أسايح أن يخفوه عنه. ولم تجد أمه أخيراً بدأ من كشفه له. ذلك أنها ظلت أياماً طويلة، بعد تلك العملية، وأصاب المرض تتوجها بالحمى. لقد التهب الجرح الذي شق في بطنها، فراحت تمناني

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

منه ألواناً من الآلام أرمضت قواها وأوهنت عزيمتها، فشمرت
أنها تشيخ في أسابيع.

وقد لاحظ أن الرسائل الأخيرة التي وردته، قد كتبها أخوه
وكانت أمه تكتفي بتسجيل بضعة أسطر في طرف بعض الرسائل،
معتذرة تارة بالمعمل البيتي المنهك، واعدة تارةً أخرى بأن تكتب
له مطولاً في الأسبوع التالي.

«لقد كان إخوتك يا ولدي يُصرون على أن أحمل رسائلهم
إليك ولو عبارة واحدة تخطها يدي، حتى لا تنتابك الظنون في
صحتي، فكنت أخط هذه العبارة التافهة، والدمعة تكاد تظفر من
عيني، ولكنني بت لا أطيق هذا الصمت الكاذب، إنني مريضة جداً
يا ولدي، وأنا أتالم أبداً، وأشعر بأن أيامي باتت معدودة. وكل ما
أتمناه على الله أن يمدّ في حياتي إلى يوم تكتحل عيني برويتك.
فهل سيطول مكوثك في البلد البعيد؟ رحماك يا ولدي، إنني
أعيش على أمل عودتك القريبة».

ولم تمكنه الدموع التي ترقرقت في محجريه من متابعة
الرسالة، فأثر أن يترقب حتى يُفرغ لوعته في عينيه، وحتى تفرغ
عيناه عبراتهما.

وكان يتمتم باسم أمه في غصة. وفي تلك اللحظة بالذات
صح عزمه على أن يضع حداً لتردده، ويسافر إلى الوطن في
أقرب فرصة ممكنة، بعد شهرين، بل قبل ذلك على التدقيق.

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

ويعود إلى الرسالة، وقد هدأ بلباله. ولكن ما بال أمه تنسى مرضها وابتهاالاتها إليه، لتعرض لذلك الموضوع:

«أخشى يا بني، أن يصرفك الغرب عنا. وأخشى فوق ذلك أن تسحرك امرأة من هناك فتقع في شباكها، وتخبب أمل أمك الصغيرة بك. إن «ناهدة» تنتظرك يا ولدي. أقرأ ذلك في عينيها كلما زارتنا، وأرى الحنين فيهما كلما جرى الحديث عنك. وإن كانت تمسك عن ذكرك، وأنت تعرف خجلها. ومع ذلك، فإن لم تكن راغباً في «ناهدة»، فهناك «نعمت» و«ثريا» و«هدباء» ابنة خالتك. هناك كثيرات. مُحذِّ يا بني لأخطب لك أجمل فتاة هنا، وأشرفها. وأظهرها...»

أ يكون هذا هو حدس أمه الذي يعرفه؟ أتراها ترتاب بأن هناك علاقة تربطه بامرأة يعيش منذ حين في نعيم حبها؟ لقد كان يعجب دائماً لهذا الحسن الذي كان يتيح لأمه أن تتبأ بكثير من الشؤون الخفية التي تمسه وتمس إخوته. ولعل هذا هو الذي جعلهم يجدون صعوبة كبيرة في الكذب أو الرياء.

وانتفض الخوف، الذي كان قد أنامه، من التفكير بالزواج. كأنما الإشفاق على أمه من الخيبة التي تحدث بها، هو التبرير الصحيح... وتمثلها أمامه، هي أمه تتحدث إليه. وقد علمت أنه يحب امرأة فرنسية ويفكر أحياناً بالزواج منها. واستوعب في لحظات جميع أفكارها وحركاتها، وحججها...

وسمع دقاً على بابه، ثم أطلّ وجه تيريز:

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

- أستطيع أن أدخل، فأنظف غرفة سيدي، أم أنتظر
خروجه؟

- أنا خارج بعد دقائق يا تيريز.

- إذاً، فأنا داخلةً لأنظف غرفة الأنسة جانين.

وسرعان ما عاد إليه وجه أمه. في وجه تيريز هذه. التي
أغلقت خلفها الباب. ورأها. هي تيريز. تستعيد حركات أمه
وأفكارها وحججها. ولكن بالفرنسية أول الأمر. ثم اختلطت
الكلمات باللغتين.

وأحس بقدميه تدفمائه إلى غرفة جانين، يريد أن يرى وجه
تيريز. ثم يتخيل عليه طابع الأم. ودخل الغرفة. فأحس رائحة
جانين. ومذاقها. وجبها. ورأى أن يقول شيئاً لتيريز:

- تيريز... كيف حال الأولاد؟

وانطلقت خادمة الفندق في محاضرتها. وكان يود إطالة
التحديق في وجهها، ولكنها لم تكن تلتفت إليه إلا قليلاً. وفت
بصره بفتنةٍ دفتراً كثيفاً. موضوع على الطاولة الصغيرة بجانب
السريـر، فاقترب وتناولته وقرأ على الصفحة الأولى. بالفرنسية
«مذكرات باريس» وفي الزاوية السفلى «جانين مونتر».

لا، ينبغي لك ألا تقرأ فيه. الصفحة الأخيرة. الصفحة
الأخيرة فقط. ليس إلا الصفحة الأخيرة؟

وفتحه. «23 نيسان. صباحاً تاريخ اليوم.

«كانت ليلتي هادئة النوم. أكاد الآن أعرف طريقي. ما كان لي بالأمس أن أحدثه ولو بغموض عن الغد. إنه لم يفكر به. وأعتقد أنه ليس مستعداً للتفكير به. لقد قال لي العبارة التي كنت أخشاها: «وأنا أيضاً، ينبغي ألا أكون في حياتك غير طيف عابره. استغفرتة، ورجوته أن يسامحني. وأن ينسى الذي قلته له عن المستقبل. وقلت إنني سأحاول أنا أيضاً أن أنساه. هذا المستقبل، كما أحاول أن أنسى الماضي. أياكون هذا صحيحاً؟ لست أدري. ولكن يجب عليّ أن أحاول. من أجله هو، من أجل حبه. أصبحت أحب هذا الحب، وأحب نفسي التي تحبه، أحسب أنني أعيش في أنانية لم أكن أعتقد أنني أقدر عليها، قلت له مثل هذا تقريباً. ولماذا، في الحق، يمنيني ما سوف ينتهي إليه حبي؟ أليس هو حسبني وغايتي كلها؟ ألسنُ به أعيش، ومنه أستمد أسباب حياتي؟ ألا يكون من حماقة آخر الأمر، أن أنظر إلى بعيد، ما دامت السعادة بين يدي، أترشف منها وأتلذذ بها، وأكاد أنكر أن بوسع إنسان أن يدرك منها ما أدرك؟»

«أعتقد اني لم أزل من نفسه كل أثر سيء خلفه حديثي إليه عن الغد. سأحاول أن أفتح اليوم هذا الموضوع مرة أخرى لأصارحه. سأصارح حبيبي العربي بأنني سأحبه كما تحب المرأة الرجل في الشرق، لا تطلب مقابلاً، ولا تنتظر عروضاً. لا أدري أين قرأت هذا. ولكنني أعتقد أنه الحب الصحيح، لأنه التفاني كله والإخلاص... أم أراني على خطأ؟ مهما يكن من أمر، فسأقول له

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

إنه لا يخفيني بعد أن يذهب، فقد زؤد حياتي بزاد من الحب لا أحسب أنه سيجفّ يوماً.

«أنا ذاهبة الآن إلى عملي بعد هذه الأيام العشرة من المرض... أحمن بنشوة في صدري، وأشعر بهذه السماء الربيمية الصافية تدخل إلى قلبي فتملأه أملاً وحياء ورغبة. أظن أنني لن أدع المرض يتغلب عليّ بعد الآن. أنني أستثمر ذخيرة غنية من رصيد المقاومة. شكراً لك أيها الحبيب، شكراً لك يا حبيبي العربي».

وحيث أغلق الدفتر، سمع صوت تيريز:

- وأما الصغير جان...

- ستحدثيني عنه غداً يا تيريز. فينبغي لي الآن أن أسرع

بالخروج.

- ليمّ لمّ تصحب جانين، ما دمت تنوي أن تقضي السهرة معنا؟ أما كان الأفضل أن نكون فتاتين، وأنتما شابان! إنني أكاد أخاف على نفسي بينكما.

وانفجرت فرانسواز ضاحكة، وهي تلتصق بفؤاد، وتكشر في وجهه تكشيرة مصطنعة.

وأجاب هو:

- كم كان يسمدني أن تصحبني جانين، ولكن الواقع أنها مدعوة الليلة إلى سهرة لدى أسرة فرنسية من صديقات أسرتها.

قالها ثم ندم. كان بوسمه أن يتحاشى الجواب عن سؤال

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

فرانسواز بتحويل الحديث إلى وجهة أخرى، وبذلك لا يُدفع دفماً إلى الكذب. وكأنه حسب أن بإمكانه استدراك قوله، فسأل فرانسواز:

- قولي الحق يا فرانسواز: أصحيح أن الفتاة الفرنسية إجمالاً تخشى من الشرقي؟

- نعم صحيح! لست أتملقكما إذا قلت إن هذا أمر مؤسف حقاً. على أن الخطأ ليس هو خطأ الفتاة الفرنسية. هكذا علّموها في بعض مجتمعاتهم...

ودُق الباب في تلك اللحظة، ودخل بالتتالي عدنان وربيع وأحمد فالتفت فؤاد يقول:

- ها إن الشمل قد اجتمع... لا ينقصنا سوى صبحي حتى نؤلف جوقة موسيقية عربية!

وفكّر فجأة أن الأخرى به، هو، أن يقول حتى «نركب طاولة بوكرا، وراقت له الفكرة، وحدث نفسه أن من اليسير عليه أن يمهد لها متى حانت المناسبة. وقال عدنان معلقاً:

- قد تعجبون إذا علمتم أين هو صبحي الآن!

- في المرقص؟

- في السينما؟

- في كهف من كهوف «السان جرمان»؟.

فظل عدنان يومي برأسه نفيماً، ثم قال بهدوء:

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

- في غرفته!

فضحك بعضهم. وعدّها الآخرون نكتة بائخة... ولكن عدنان
قال برصانة:

- لم أرد أن أضحككم. وإنما أن أنبئكم بأن صديقنا العزيز
قد تطلّو من صباح أمس تطوراً عجيّباً إنه الآن في غرفته. لا
مع امرأة وإنما مع كتاب! وقد ألححت عليه في أن يصحبنا.
ولكنه رفض رفضاً شديداً.

وروى عدنان كيف أتاه صبحي بالأمس يعلن أنه منصرف
منذ يومه عن اللهو والمبث، وأنه سيمسك مسلك الجد والعمل! فهو
لم يكذب ينجز خلال هذه الأشهر الستة أي مادة من مواد
الشهادات التي سيقدمها في دورة حزيران، ثم إنه قد أصيب من
المرأة في باريس بالنفور بل بالفشيان وأنه...

فقاطعه أحمد:

- أما أنه لم يفعل شيئاً في كلية الحقوق. فهذا لا مرأى فيه!
وأما أنه أصيب من المرأة بالفشيان، ففي هذا كله المرأى! بضعة
أيام، وسترون! سيعود إلى المرأة أشد لهفة وأوفر اندفاعاً... إنه
أيها الاعزاء يمؤّض عما فات. وعما هو أت!

وانفجرت ضحكتهم، فاهتزت لها الجدران. ولاحظ ربيع
ذلك، فسأل فؤاد:

- نرجو ألا نزعج بأصواتنا صاحبة البانسيون أو بعض
نزلائه.

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

- لا، ليس في ذلك أي إزعاج. كل ما سيقولونه إن هؤلاء العرب لا يتعلمون الكلام في مدارس الشرق، وإنما يتعلمون الصراخ والزّعاق!.

وتذكر هو ما كانت فرانسواز قد بدأت من حديث عن نظرة الفتاة الفرنسية إلى الشرقي، حين دخل الأصدقاء فقطعوا عليها الكلام. ورجاها أن تستأنفه، فابتسمت فرانسواز وقالت:

- كنت أتحدث عن خوف الفرنسية - إجمالاً - إذا وجدت مع شرقي واحد... فكيف يكون خوفها إذا وجدت مع خمسة!.

وبعد أن كففوا ضحكهم، وهم ينتظرون إلى الباب خشية، استطردت تقول:

- لقد علّموا الفتاة الفرنسية، في بعض مجتمعاتهم، أن تخشى هذا الشرقي الساكن في الصحراء، القائم في مجتمع متأخر، لا بد أنه متوحش. وأعتقد أنكم مقصرون جداً في الدعاوة لأنفسكم...

فقال فؤاد، وكأنه يقاطعها:

- هذا صحيح، ولكننا سنظل مقصرين في هذا السبيل. ولو بدلنا ملايين الفرنكات، ما دام اليهود هم الذين يستولون برؤوس أموالهم على أهم المرافق الفرنسية!

فقال فرانسواز:

- إنني أفرح يا عزيزي على رأيك، ولكن إلى حد. فليس

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

مال اليهود هو كل شيء في القضية. وأنا أؤكد لك أن أعداء اليهودية والصهيونية في فرنسا أكثر مما يتصور البعض. ولكن هناك أمراً آخر تعذرونني إذا صارحتكم به. إن بعض العناصر الشرقية، والمربية بصورة خاصة، تمطي في كثير من الأحيان فكرة سيئة عنكم، بما يرافق مسلكها من شذوذ وخرق للمواضعات الاجتماعية. ولولا ذلك...

وهنا قاطمها ربيع بسؤال هادئ:

- ولكن هل لك أن تحددى «بعض» هذه العناصر؟ لملك

تصدين الأفريقيين الشماليين؟

- لم يكن بعض هؤلاء الأفريقيين الشماليين بعيداً عن

ذهني، وأنا أقول ما قلت!.

- أؤكد لك أيتها الأنسة أن هؤلاء الأفريقيين من تونسين

وجزائريين ومراكشيين، الذين يسكنون هنا، في أحياء خاصة

لهم، هم أبعد من أن يمثلوا حقيقة السكان في تلك الأقطار. وقد

بات معلوماً اليوم أن السلطة تشجع قيام هذه الأحياء الخاصة في

باريس وتترك لها أن تعيش حياتها الخاصة، بما فيها من جهل

وفقر وانحطاط - ولا تنسوا أن معظم هؤلاء السكان من العمال

والباعة المتجولين، ومن طريدي المدالة والجناة... إن السلطات

تشجع هذه الأحياء، وتدع لها طابع الحياة المستقلة، لتقيم الدليل

على هؤلاء المقيمين في باريس، لا يستحق مواطنوهم أن ينموا

بالحرية والاستقلال. إنه الاستعمار، أيتها الأنسة فرانسواز. يتوسل

بكل وسيلة ليظل ثابت الأقدام في بلادنا...

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

قال فرانسواز، وهي تترك يديها:

- آسف يا سيد ربيع إن كنت قد أوهمتك أنني أود أن أمس
حسك الوطني بما قلت. لم أقصد إلى ذلك إطلاقاً... وأنا أرى
أن الموضوع قد تطوّر فخرج عن النطاق الذي قصدناه. أليس
كذلك يا فؤاد؟

والتفتت فرانسواز إلى فؤاد، فإذا هو يقول:

- ما رأيك يا عزيزي في أن نقوم. أنت وأنا. بإعداد الشاي
لهذه الذئاب الكاسرة؟

فاحتج أحمد يقول:

- لِمَ الشاي؟ وزجاجة الخمر الأحمر التي هناك في الزاوية،
لمن تستبقها يا فؤاد؟

- لعلّ أحداً منكم لا يرى شرب الخمر في هذه الأيام من
رمضان، فهو يؤثر شرب الشاي! عدنان مثلاً... لقد قيل لي إنك
تصوم رمضان هنا في باريس...

قال عدنان:

- هذا صحيح. فأنا أصومه لأنني أؤمن بالفائدة الصحية التي
يحملها...

فقال فؤاد:

- وللخمر أيضاً فائدة صحية هنا، فهو يبعث بالدفء، ويجدد
النشاط...

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

فأجاب عدنان وهو يضحك:

- ومن قال لك إنني لن أشربه؟ إن اللياقة تقتضي
«المسايرة»... فملّقت ربيع، وضحكته تتصادم مع ضحكات
الأصدقاء:

- إنك تؤمن بكل شيء أيها المزيّز... وتؤمن على الخصوص
بقول النواصي:

فخير هذا بشرّ ذا فإذا الله قد ضالاً

وكانت فرانسواز وهؤاد يتعاونان على صبّ الخمر في أكواب
الشاي وفناجين القهوة، حين طُرق الباب طرقات خفيفة. فخفتت
الأصوات، ثم صمتت، وكان الداخل صبحي.

فصاح أحمد:

- أهلاً بزاهد النساء وعاشق الكتب!

ولكنّ صبحي اجتزأ بابتسامة مقتضبة وقال:

- إن عندي لكم نبأ لا مجال فيه للمزاح على ما أعتقد!
وبسط لهم الطبعة الليلية الأخيرة من جريدة «فرانس سوار»
فقرأوا بعنوان ضخّم: «انقلاب عسكري جديد في سوريا». ثم أخذ
يقرأ لهم تفاصيل النبأ.

وظلوا صامتين دقائق. بعد أن طويت الصحيفة، وعادت إلى
جيب صبحي. ثم هزّ هؤاد رأسه، وقال وبسمة ساخرة على شفّتيه:

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

- لقد كنا نتوقع ذلك منذ حدث الانقلاب الأول. لقد انتهى الأمر وسارت بلادنا في طريق الديكتاتورية العسكرية. ولكننا لم نفقد الأمل، ولن نفقده أبداً، وإلا لن يكون لوجودنا أي معنى!

قال أحمد:

- صحيح أن الديكتاتورية العسكرية أمرٌ لا يستحق إلا الشجب، ولكنه يظل خيراً من الاستعمار الأجنبي الذي يلعب من وراء ستار في بلاد مستقلة اسمياً!

أما عدنان فراح يدافع عن الانقلاب الأول، وعن ضرورته في هذه الفترة من تاريخ البلاد، ثم قال كلاماً كثيراً يؤيد فكرة «المستبد العادل».

ولم ينهضوا ليتفرقوا إلى غرفهم إلا وقد جاوزت الساعة منتصف الليل. وقد سمع هو، صديقه فؤاد يقول لأحمد وهو يودعه:

- قَبِّحك الله... أنت الذي جنيت على زجاجة الخمر... فما أشدَّ حاجتي إليها الآن!

وبلغ هو فندق «ليفيران زوم» فرقي السلم مسرعاً، حتى إذا ما أدرك الطابق السادس، تمهّل في سيره، وراح يسترق الخطى استراقاً.

ولقد هدأت أنفاسه حين رأى النور مطلقاً في غرفة جانين.

خاتمة

لا، ما أنت بالحالم، وقد أن لك أن تصدق عينيك. أو ما
تشمع باهتزاز البخارة، وهي تشق هذه الأمواج، متمددة بك عن
الشاطن، متجهة صوب عاصمة بلادك؟

لا، ليس هو بالحالم، فهذه أطياف بيضاء تلوح في جموع
المستقبلين، وتبدو لعينيه أشباحاً نائية، كأنما هي رسم اهتزت به
يد المصور، فخرج مضطرب الخطوط، وما تلبث طويلاً حتى
تجلى معالمها. ولم يمرف أن ذلك الجمع الصغير الأبيض هو
جمع أهله إلا حين أصبحت البخارة على بعد يسير من الشاطن.

وتقترب منه الوجوه رويداً رويداً، ثم ينبثق منها فجأة وجه
فتي، في ملامحة قسوة وقلق. ويظل هذا الوجه الحبيب يكبر
وينمو، ملامح وتقاسيم عميقة ممتدة، واثقة ومشرقة، ويرتفع
ويسمو، حتى يحتل الشاطن، وكل شيء من ورائه ظل، ثم يملأ
الأفق كله، فلا ترى عيناه من دونه شيئاً.

وتكون يد فؤاد أول يد يصادفها، فيشمع أنه يصادف فيها
عشرات من الأيدي التي يمررها، وألوفاً من الأيدي التي لا يمررها
انتثر أصحابها هنا في بيروت، وهناك في دمشق، وهناك في
القاهرة والقدس وبغداد وتونس، وفي كل ركن من بلاد المروبة.

ويظل هو ينظر في عيني فؤاد، ويظل فؤاد ينظر في عينيه
باسماً منطلق الأسارير، حتى يأتيه صوت أمه ضعيفاً كأنما هو
ينتحب:

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

- وأنا يا بني، هل نسييتني؟

فاتجه إليها وأخذها بين ذراعيه يقبلها ويقول لها:

- لا يا أمي الحبيبة لم أنسك، ولا يمكن لي أن أنساك.

ولكني رأيت فؤاد قبل أن أراك.

ثم أقبل على إخوته يمانقهم. وأقبل عليه أصدقاؤه وأقاربه

يهنئونه بالسلامة وقدم له أحدهم باقة من الزهور وهو يقول:

- رمزاً لتهنئتنا لك بالشهادة.

وعادت إليه أمه تنتزعه من أصحابه. كأنها كانت تخشى أن

يفروا به دونها. ثم قالت، وكأنما تعلق على عبارة صديقه:

- الحمد لله... لقد انتهينا الآن يا بني، أليس كذلك؟

وفي تلك اللحظة، طافت بمخيلته حياته الباريسية كلها في

الحي اللاتيني، وذكر أصدقاءه، هؤلاء الذين سيمودون عما قليل

إلى الوطن، فأطبق جفنيه هنيهة، ثم فتحهما، فإذا فؤاد في

وجهه تبسم له عيناه الواثقتان القاسيتان.

وتناول ذراع أمه ومضى بها. وغمره الاطمئنان حين شعر بأن

فؤاد إلى جانبه. وأعدت عليه أمه السؤال:

لقد انتهينا الآن إذاً يا بني، أليس كذلك؟

فأجابها من غير أن ينظر إليها:

- بل الآن نبدأ يا أمي...

موسم الهجرة إلى الشمال

الطيب صالح (1967)

الطيب صالح (1929 - 2009)، روائي سوداني كبير. أطلق عليه النقاد لقب «عبقري الرواية العربية». عاش في بريطانيا وقطر وفرنسا. وفي شبابه انتقل إلى الخرطوم لإكمال دراسته فحصل من جامعتها على درجة البكالوريوس في العلوم. سافر إلى إنجلترا حيث واصل دراسته، وغيّر تخصصه إلى دراسة الشؤون الدولية. تنقل الطيب صالح بين عدة مواقع مهنية، فمدا عن خبرة قصيرة في إدارة مدرسة. عمل الطيب صالح لسنوات طويلة من حياته في القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية، وترقى بها حتى وصل إلى منصب مدير قسم الدراما، وبعد استقالته من البي بي سي عاد إلى السودان وعمل لفترة في الإذاعة السودانية، ثم هاجر إلى دولة قطر وعمل في وزارة إعلامها وكيلاً ومشرفاً على أجهزتها. عمل بعد ذلك مديراً إقليمياً بمنظمة اليونيسكو في باريس. وعمل ممثلاً لهذه المنظمة في الخليج العربي. ويمكن القول إن حالة الترحال والتنقل بين

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

الشرق والغرب والشمال والجنوب أكسبته خبرة واسعة بأحوال الحياة والعالم وأهم من ذلك أحوال أمته وقضاياها وهو ما وظفه في كتاباته وأعماله الروائية وخاصة روايته العالمية موسم الهجرة إلى الشمال.

الطبيب صالح كتب العديد من الروايات التي ترجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة وهي «موسم الهجرة إلى الشمال»، و«عرس الزين»، و«مريود»، و«ضو البيت»، و«دومة ود حامد»، و«منسي».

أعماله:

◆ موسم الهجرة إلى الشمال

◆ ضو البيت (بندر شاه)

◆ دومة ود حامد

◆ عرس الزين

◆ مريود

الرواية:

نشرت عن دار العودة في بيروت في 1967 ونالت شهرتها من كونها من أولى الروايات التي تناولت، بشكل فني راق، الصدام بين الحضارات وموقف إنسان العالم الثالث - النامي ورؤيته للعالم الأول المتقدم. في هذه الرواية يزور مصطفى

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

سميد، وهو طالب عربي، الفرب ويحصل على وظيفة كمحاضر في إحدى الجامعات البريطانية ويتبنى قيم المجتمع البريطاني، هناك يتعرف إلى زوجته، جين موريس، وهي امرأة بريطانية ترفض قبول إملاءات زوجها. بعد سبعة أعوام يعود مصطفى إلى بلاده، حيث يلتقي هناك بصورة مفاجئة براوي القصة الذي عاش أيضاً في بريطانيا. القصة نفسها تروى عن طريق قصص يرويها الراوي والبطل. شخصية مصطفى سميد ممزقة «بين هويته العربية الأفريقية، وثقافته التي صاغها الفرب الاستعماري، وهو تمزق لا يتضح في الشخصية فحسب، بل في ما تتركه من دمار في أي موضع نحل به وشخصية تماس معها في علاقة حب أو صداقة» (قاموس الأدب العربي الحديث، القاهرة: دار الشروق، 2007، ص. 304)



عدت إلى أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة، سبعة أعوام على وجه التحديد، كنت خلالها أتلم في أوروبا. تعلمت الكثير، وغاب عني الكثير، لكن تلك قصة أخرى. المهم أنني عدت وبني شوق عظيم إلى أهلي في تلك القرية الصغيرة عند منحني النيل. سبعة أعوام وأنا أحن إليهم وأحلم بهم، ولما جئتهم كانت لحظة عجيبة أن وجدته حقيقة قائماً بينهم، فرحوا بي وضجوا حولي، ولم يمض وقت طويل حتى أحسست كأن ثلجاً يذوب في دخيلتي،

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

فكأنني مقررور طلعت عليه الشمس. ذاك دفء الحياة في المشيرة، فقدته زماناً في بلاد «تموت من البرد حيتانها». تعودت أذناي أصواتهم. وألفت عيناى أشكالهم من كثرة ما فكرت فيهم في الغيبة، قام بيني وبينهم شيء مثل الضباب، أول وهلة رأيتهم. لكن الضباب راح، واستيقظت ثاني يوم وصولي. في فراشي الذي أعرفه في الغرفة التي تشهد جدرانها على نزوات حياتي في طفولتها ومطلع شبابها وأرخت أذني للريح. ذاك لعمري صوت أعرفه، له في بلدنا وشوشة مرحة. صوت الريح وهي تمر بالنخل غيرها «وهي تمر بحقول القمح». وسمعت هديل القمري، ونظرت خلال النافذة إلى النخلة القائمة في فناء دارنا، فعلمت أن الحياة لا تزال بخير، أنظر إلى جذعها القوي الممتدل، وإلى عروقها الضاربة في الأرض، وإلى الجريد الأخضر المنهدل فوق هامتها فأحس بالطمأنينة. أحس أنني لست ريشة في مهب الريح، ولكنني مثل تلك النخلة، مخلوق له أصل، له جذور له هدف.

وجاءت أمي تحمل الشاي. وفرغ أبي من صلواته وأوراده فجاء. وجاءت أختي، وجاء أخوأي، وجلسنا نشرب الشاي ونتحدث، شأننا منذ تفتحت عيناى على الحياة. نعم، الحياة طيبة، والدنيا كحالها لم تتغير.

فجأة تذكرت وجهاً رأيتُه بين المستقبلين لم أعرفه. سألتهم عنه، ووصفته لهم. رجل ربمة القامة، في نحو الخمسين أو يزيد

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

قليلاً، شمر رأسه كثيف مبيض، ليس له لحية وشاربه أصفر قليلاً
من شوارب الرجال في البلد. رجل وسيم.

وقال أبي: «هذا مصطفى»

مصطفى من؟ هل هو أحد المفترين من أبناء البلد عاد؟

وقال أبي إن مصطفى ليس من أهل البلد، لكنه غريب جاء
منذ خمسة أعوام، اشترى مزرعة وبنى بيتاً وتزوج بنت محمود...
رجل في حاله، لا يعلمون عنه الكثير.

لا أعلم تماماً ماذا أثار فضولي، لكنني تذكرت أنه يوم
وصولي كان صامتاً. كل أحد سألني وسألته. سألوني عن أوروبا.
هل الناس مثلنا أم يختلفون عنا؟ هل المميثة غالية أم رخيصة؟
ماذا يفعل الناس في الشتاء؟ يقولون إن النساء سافرات يرقصن
علانية مع الرجال. وسألني ود الريس: «هل صحيح أنهم لا
يتزوجون ولكن الرجل منهم يعيش مع المرأة بالحرام؟».

أسئلة كثيرة رددت عليها حسب علمي. دهشوا حين قلت لهم
إن الأوروبيين، إذا استثنينا فوارق ضئيلة، مثلنا تماماً، يتزوجون
ويربون أولادهم حسب التقاليد والأصول، ولهم أخلاق حسنة،
وهم عموماً قوم طيبون.

وسألني محجوب. «هل بينهم مزارعون؟»

وقلت له: «نعم بينهم مزارعون وبينهم كل شيء. منهم
العامل والطبيب والمزارع والمعلم، مثلنا تماماً. وآثرت ألا أقول

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

بقية ما خطر على بالي: «مثلنا تماماً. يولدون ويموتون وفي الرحلة من المهد إلى اللحد يحلمون أحلاماً بعضها يصدق وبعضها يخيب. يخافون من المجهول، وينشدون الحب، ويبحثون عن الطمأنينة في الزوج والولد. فيهم أقوياء، وبينهم مستضعفون، بعضهم أعطته الحياة أكثر مما يستحق، وبعضهم حرمته الحياة لم أقل لمحجوب هذا، وليتني قلت، فقد كان ذكياً. خفت، من غروري، ألا يفهم.

وقالت بنت مجذوب ضاحكة: «خفنا أن تعود إلينا بنصرانية غلفاء».

لكن مصطفى لم يقل شيئاً. ظل يستمع في صمت، يبتسم أحياناً، ابتسامة أذكر الآن أنها كانت غامضة، مثل شخص يحدث نفسه.

نسيت مصطفى بعد ذلك، فقد بدأت أعيد صلتي بالناس والأشياء في القرية. كنت سعيداً تلك الأيام، كطفل يرى وجهه في المرأة لأول مرة. وكانت أمي لي بالمرصاد، تذكرني بمن مات، لأذهب وأعزي، وتذكرني بمن تزوج، لأذهب وأهنئ. جبت البلد طويلاً وعرضاً معزياً ومهنئاً. ويوماً ذهبت إلى مكاني الأثير، عند جذع شجرة طلع على ضفة النهر. كم عدد الساعات التي قضيتها في طفولتي تحت تلك الشجرة، أرمي الحجارة في النهر وأحلم، ويشرد خيالي في الأفق البعيد؟ أسمع أنين السواقي على النهر، وتصايح الناس في الحقول، وخوار ثور أو نهيق حمار. كان الحظ يسمدني أحياناً، فتمر الباخرة أمامي صاعدة أو نازلة. من

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

مكاني تحت الشجرة، رأيت البلد يتغير في بطنه. راحت السواقي، وقامت على ضفة النيل ظلمبات لضخ الماء، كل مكنة تؤدي عمل مائة ساقية. ورأيت الضفة تتقهقر عاماً بعد عام أمام لطمات الماء، وهي جانب آخر يتقهقر الماء أمامها. وكانت تخطر في ذهني أحياناً أفكار غريبة. كنت أفكر، وأنا أرى الشاطئ يضيق في مكان، ويتسع في مكان، أن ذلك شأن الحياة، تمطي بيد وتأخذ باليد الأخرى. لكن لعلني أدركت ذلك فيما بعد. أنا الآن، على أي حال، أدرك هذه الحكمة، لكن بذهني فقط، إذ أن عضلاتي تحت جلدي مرنة مطواعة وقلبي متفائل. إنني أريد أن أخذ حقي من الحياة عنوة، أريد أن أعطي بسخاء، أريد أن يفيض الحب من قلبي فينبع ويثمر. ثمة أفاق كثيرة تقرأ، وصفحات بيضاء في سجل الممر، سأكتب فيها جمللاً واضحة بخط جريء. وأنظر إلى النهر بدأ ماله يربد بالظمي - لا بد أن المطر هطل في مضاب الحبشة - وإلى الرجال قاماتهم متكئة على المحاريت، أو منحنية على المعاول. وتمتلئ عيناها بالحقول المنبسطة كراحة اليد إلى طرف الصحراء حيث تقوم البيوت. أسمع طائراً يفرد، أو كلباً ينبع، أو صوت فأس في الحطب.

وأحس بالاستقرار. أحس أنني مهم، وأنني مستمر، ومتكامل. «لا... لست أنا الحجر يلقي في الماء، لكنني البذرة تبذر في الحقل». وأذهب إلى جدي، فيحدثني عن الحياة قبل أربعين عاماً قبل خمسين عاماً، لا بل ثمانين، فيقوى إحساسي بالأمن. كنت أحب جدي، ويبدو أنه كان يؤثرني. ولعل أحد أسباب صداقتي

معه، أنني كنت منذ صغري تشخذ خيالي حكايات الماضي، وكان جدي يحب أن يحكي، ولما سافرت خفت أن يموت في غيبتي، وكنت حين يلم بي الحنين إلى أهلي، أراه في منامي. قلت له ذلك، فضحك وقال: «حدثني عراف وأنا شاب، أنني إذا جاوزت عمر النبوة - يعني الستين - فإنني سأصل المائة. وحسبنا عمره، أنا وهو فوجدنا أنه بقي له نحو اثني عشر عاماً.

كان جدي يحدثني عن حاكم غاشم، حكم ذلك الإقليم أيام الأتراك. ولست أعلم ما الذي دفع بمصطفى إلى ذهني، لكنني تذكرته بفتة، فقلت أسأل عنه جدي، فهو عليم بحسب كل أحد في البلد ونسبه، بل بأحساب وأنساب مبمثرة قبلي وبحري، أعلى النهر وأسفله. لكن جدي هز رأسه وقال إنه لا يعلم عنه سوى أنه من نواحي الخرطوم، وأنه جاء إلى البلد منذ نحو خمسة أعوام، واشترى أرضاً تفرق وارثوها، ولم تبق منهم إلا امرأة. فأغراها الرجل بالمال واشتراها منها. ثم قبل أربعة أعوام زوجه محمود إحدى بناته. قلت لجدي: «أي بناته؟» فقال: «أظنها حسنة». وهز جدي رأسه وقال: «تلك القبيلة. لا يبالون لمن يزوجون بناتهم». لكنه أردف، كأنه يمتذر، أن مصطفى طول إقامته في البلد، لم يبدو منه شيء منفر، وأنه يحضر صلاة الجمعة في المسجد بانتظام، وأنه يسارع «بذراعه وقدحه في الأفراح والأتراح...» هكذا طريقة جدي في الكلام.

بعد هذا بيومين، كنت وحدي أقرأ وقت القيلولة. كانت أمي وأختي تلغطان مع بعض النسوة في أقصى البيت، وكان أبي نائماً.

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

وقد خرج أخوأي لشأن ما، فخلوت بنفسي. سمعت نحنحة خارج البيت، فقامت، فإذا هو مصطفى، يحمل بطيخة كبيرة، وزنبيلاً مملوءاً برتقالاً. ولعله رأى الدهشة على وجهي، فقال: «أرجو ألا أكون أيقظتك من نوم. لكنني قلت أجيئك بمينة من ثمر الحقل، تذوقه. كذلك أحب أن أتعرف إليك. وقت الظهيرة ليس وقت زيارة. اعذرني».

لم يغب عني أدبه الجم، فأهل بلدنا لا يبالون بعبارات المجاملة. يدخلون في الموضوع دفعة واحدة، يزورونك ظهراً كان أو عصرأ، لا يهمهم أن يقدموا المعاذير. رددت الود بالود، ثم جيء بالشاي.

دققت النظر في وجهه، وهو مطرق. إنه رجل وسيم دون شك، جبهته عريضة رحبة، وحاجباه متباعدان، يقومان أهلة فوق عينيه، ورأسه بشعره الغزير الأسيب متناسق تماماً مع رقبتة وكتفيه، وأنفه حاد منخاراه مليئان بالشعر. ولما رفع وجهه أثناء الحديث، نظرت إلى فمه وعينيه، فأحسست بالمزيج الغريب من القوة والضعف في وجه الرجل. كان فمه رخواً، وكانت عيناه ناعستين، تجملان وجهه أقرب إلى الجمال منه إلى الوسامة. ويتحدث بهدوء، لكن صوته واضح قاطع. حين يسكن وجهه ويقوى. وحين يضحك يفلب الضعف على القوة. ونظرت إلى ذراعيه، فكانتا قويتين، عروقهما نافرة. لكن أصابعه كانت طويلة

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

رشيقة، حين يصل النظر إليهما بمد تأمل الذراع واليد، تحس
بفتة كأنك انحدرت من الجبل إلى الوادي.

قلت أدعه يتحدث، فهو لم يجيء إلي في حمأة القيظ، إلا
ليقول لي شيئاً. ولعله من ناحية أخرى جاء بوازع من حسن النية.
لكنه قطع عليّ حدسي. فقال: «لملك الوحيد من أهل البلد، الذي
لم أسعد بالتعرف عليه من قبل». لماذا لا يترك هذا الأدب.
ونحن في بلد إذا غضب فيها الرجال. قال بعضهم لبعض: يا ابن
الكلب.

«سمعت كثيراً عنك من أهلك وأصدقائك» - لا غرو - فقد
كنت أعد نفسي زينة الشباب في البلد.

«قالوا إنك نلت شهادة كبيرة - ماذا تسمونها؟ الدكتوراه»
يقول لي ماذا تسمونها؟ لم يجبني ذلك، فقد كنت أحسب أن
الملايين المشرة في القطر كلهم سمعوا بانتصاري.

«يقولون إنك لامع منذ صفرك».

«المفوء» - هكذا قلت، لكنني، والحق يقال، كنت تلك الايام
مزهواً بنفسي، حسن الظن بها.

«دكتوراه. هذا شيء كبير».

فقلت له، وأنا أتصنع التواضع، إن الأمر لا يمدو أنني قضيت
ثلاثة أعوام، أنقب في حياة شاعر مغمور من شعراء الإنكليز.
واغتظت، لا أخفي عليكم أنني اغتظت، حين ضحك الرجل ملء
وجهه، وقال:

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

«نحن لا حاجة لنا بالشعر. لو أنك درست علم الزراعة أو الهندسة أو الطب، لكان خيراً». انظر كيف يقول «نحن» ولا يشملني بها. مع العلم بأن البلد بلدي. وهو - لا أنا - الغريب. لكنه ابتسم في وجهي بركة، ولاحظت كيف طفئ الضعف في وجهه على القوة، وكيف أن عينيه في الواقع جميلتان كعيني أنثى، وقال:

«لكن نحن مزارعون نفكر في ما يعنيننا، إنما العلم، مهما كان، ضروري لرفعة الوطن».

صمت برهة، فازدحمت أسئلة كثيرة في رأسي: من أين هو؟ ولماذا استقر في هذا البلد؟ وما هي قصته؟ لكنني آثرت التريث، وأسعفتني هو فقال:

«الحياة في هذا البلد هينة خيرة. الناس طيبون، عشرتهم سهلة».

فقلت له: «إنهم يذكرونك بالخير. جدي يقول إنك رجل فاضل».

ضحك حينئذ، ربما لأنه تذكر مقابلة له مع جدي، وبدا كأنه سر من قولي، وقال:

«جديك... ذلك رجل. ذلك رجل... تسمون عاماً وقامته منتصب، ونظره حاد، وكل سن في فمه. يقفز فوق الحمار خفيفاً، ويمشي من بيته للمسجد في الفجر. هاك ذلك رجل».

كان مخلصاً وهو يقول هذا. ولم لا؟ وجدي، في واقع الأمر، أعجوبة.

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

وخفت أن يفلت الرجل قبل أن أعلم عنه شيئاً - إلى هذا الحد بلغ فضولي - فجرى السؤال عن لساني قبل أن أفكر:

«هل صحيح أنك من الخرطوم؟».

وفوجئ الرجل قليلاً وخيل لي أن ما بين عينيه قد تمكّر، لكنه بسرعة ومهارة عاد إلى هدوئه، قال لي وهو يتممّد أن يبتسم: «من ضواحي الخرطوم في الواقع. قل الخرطوم».

وصمت برهة قصيرة، وكأنه يناقش بينه وبين نفسه، هل يصمت أم يعطيني المزيد. ثم رأيت الطيف الساحر يحوم حول عينيه، تماماً كما رأيته أول يوم، وقال وهو ينظر إليّ وجهاً قبالة وجهه:

«كنت في الخرطوم أعمل في التجارة، ثم لأسباب عديدة، قررت أن اتحول للزراعة. كنت طول حياتي أشتاق للاستقرار في هذا الجزء من القطر، لا أعلم السبب، وركبت الباخرة، وأنا لا أعلم وجهتي، ولما رست في هذا البلد، أعجبتني هيئتها، وهجس هاجس في قلبي: هذا هو المكان. وهكذا كان، كما ترى. لم يخب ظني في البلد ولا أهله».

ثم صمت، وقام قائلاً إنه ذاهب للحقل، ودعاني للمشاء في بيته بعد يومين.

ولما أوصلته للباب، قال لي وهو يودعني، والطيف الساحر أكثر وضوحاً حول عينيه:
«جدك يعرف السر».

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

ولم يمهلني حتى أسأله: «أي سر يعرفه جدي؟ جدي ليست له أسرار». ولكنه مضى مبتعداً بخطوات نشيطة متحفزة، رأسه يميل قليلاً إلى اليسار.

ذهبت للمشاء فوجدت محجوباً، والمعدة، وسعيد التاجر، وأبي. تمشينا دون أن يقول مصطفى شيئاً يثير الاهتمام. كان كمادته يسمع أكثر مما يتكلم. كنت، حين يخفت الحديث وحين أجد أنه لا يمينني كثيراً، أتلفت حولي كأنني أحاول أن أجد في غرف البيت وجدرانه الجواب على الأسئلة التي تدور في رأسي. لكنه كان بيتاً عادياً، ليس أحسن ولا أسوأ من بيوت الميسورين في البلد. منقسم إلى جزءين كبقية البيوت، جزء للنساء، والقسم الذي فيه «الديوان» للرجال، ورأيت إلى يمين الديوان غرفة من الطوب الأحمر، مستطيلة الشكل، ذات نوافذ خضراء. سقفها لم يكن مسطحاً كالمادة ولكنه كان مثلاً كظهر الثور.

قمنا أنا ومحجوب وتركنا الباقيين. وفي الطريق سألت محجوباً عن مصطفى، لم يخبرني بجديد لكنه قال: «مصطفى رجل عميق».

قضيت في البلد شهرين، كنت خلالهما سعيداً وقد جمعتني الصدف بمصطفى عدة مرات. دعيت لحضور اجتماع لجنة المشروع الزراعي. دعاني محجوب، رئيس اللجنة وقد كان صديقي، نشأنا معاً منذ طفولتنا. دخلت عليهم وكان مصطفى بينهم، وكانوا يبحثون أمراً يتعلق بتوزيع الماء على الحقول. ويبدو

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

أن بعض الناس، ومنهم من هو عضو في اللجنة، كانوا يفتحون الماء في حقولهم قبل الموعد المحدد لهم. واحتد النقاش وتصايحوا بعضهم على بعض وفجأة رأيت مصطفى يهب واقفاً. هدأ اللفظ واستمعوا إليه باحترام زائد. وقال مصطفى إن الخضوع للنظام في المشروع أمر مهم وإلا اختلطت الأمور وسادت الفوضى، وإن على أعضاء اللجنة خاصة أن يكونوا قدوة حسنة لغيرهم، فإذا خالفوا القانون عوقبوا كبقية الناس. ولما فرغ من كلامه هز أغلب أعضاء اللجنة رؤوسهم استحساناً، وصمت من عناهم الكلام.

لم يكن ثمة أدنى شك في أن الرجل من عجينة أخرى، وأنه أحقهم برئاسة اللجنة، لكن ربما لأنه ليس من أهل البلد لم ينتخبوه.

بعد هذا بنحو أسبوع، حدث شيء أذهلني. دعاني محبوب لمجلس شراب. وبينما نحن نسمر جاء مصطفى يكلم محبوباً في شأن من شؤون المشروع. دعاه محبوب أن يجلس فاعتذر، ولكن محبوباً حلف عليه بالطلاق. مرة أخرى لاحظت سحابة التبرم تنعقد ما بين عيني، ولكنه جلس، وعاد بسرعة إلى هدوئه الطبيعي. وناوله محبوب كأساً من الشراب، فتردد برهة ثم أمسك بها ووضعها إلى جانبه دون أن يشرب منها. ومرة أخرى أقسم محبوب، فشرب مصطفى. كنت أعرف محبوباً متهوراً، فخطر لي أن أمنعه عن مضايقة الرجل، إذ من الواضح أنه غير راغب في الجلسة أصلاً. لكن خاطراً آخر هجم في ذهني،

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

فتوقفت. شرب مصطفى الكأس الأولى باشمئزاز واضح، شربها بسرعة، كأنها دواء مقيت. لكنه لما وصل إلى الكأس الثالثة، أخذ يبطئ ويمص الشراب مصاً، بلذة. حينئذ ارتخت عضلات وجهه، وغاب التوتر في أركان فمه، وأصبحت عيناه حالمتين ناعستين، أكثر من ذي قبل. القوة التي تحسها في رأسه وجبهته وأنفه، ضاعت تماماً في الضعف الذي سال، مع الشراب، على عينيه وفمه.

وشرب مصطفى كأساً رابعة، وكأساً خامسة. لم يمد في حاجة إلى تشجيع، لكن محجوباً كان يحلف بالطلاق على أي حال. دفن مصطفى قامته في المقعد، ومدد رجليه. وأمسك الكأس بكلتا يديه، وسرحت عيناه، كما خيل لي، في آفاق بعيدة، ثم، فجأة سمعته يتلو شعراً إنكليزياً، بصوت واضح ونطق سليم. قرأ قصيدة وجدتها فيما بعد بين قصائد عن الحرب العالمية الأولى:

«هؤلاء نساء فلاندرز

ينتظرن الضائمين،

ينتظرن الضائمين الذين أبداً لن يفادروا الميناء،

ينتظرن الضائمين الذين أبداً لن يجيء بهم القطار.

إلى أحضان هؤلاء النسوة، ذات الوجوه الميتة،

ينتظرن الضائمين، الذين يرقدون موتى في الخندق والحاجز

والطين في ظلام الليل.

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

هذه محطة تشارنج كروس. الساعة جاوزت الواحدة.

ثمة ضوء ضئيل

ثمة ألم عظيم.

بعد ذلك تأؤه. وهو لا يزال ممسكاً بالكأس بين يديه، وعيناه سارحتان، في آفاق داخل نفسه.

أقول لكم، لو أن عفريتاً انشقت عنه الأرض فجأة، ووقف أمامي، عيناه تقدحان اللهب، لما ذعرت أكثر مما ذعرت. وخامرني، بفتة، شمعور فظيع، شيء مثل الكابوس، كأننا نحن الرجال المجتمعين في تلك الغرفة، لم نكن حقيقة، إنما وهمٌ من الأوهام. وقفزت، ووقفت فوق الرجل، وصحت فيه: «ما هذا الذي تقول؟ ما هذا الذي تقول؟» نظر إلي نظرة جامدة، لا أدري كيف أصفها، لكن لعلها كانت خليطاً من الاحتقار والضييق. ودفعني بعنف بيده، ثم هب واقفاً وخرج من الغرفة في خطوات ثابتة، مرفوع الرأس، كأنه شيء ميكانيكي. كان محجوب مشغولاً، يضحك مع بقية من في المجلس، فلم ينتبه لما حدث.

ذهبت إليه ثاني يوم في حقله، فوجدته مكباً يحفر الأرض حول شجرة ليمون. كان مرتدياً سروالاً من الكاكي قصيراً متسخاً، وقميصاً من الديبلان يصل إلى ركبتيه، وعلى وجهه بقع من الطين. حياني بأدبه الجم كعادته وقال لي: «بعض فروع هذه الشجرة تثمر ليموناً، وبعضها يثمر برتقالاً».

فقلت له بالإنجليزي، عمداً: «شيء مدهش». فنظر إلي

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

مستغرباً وقال: «ماذا؟» فأعدت الجملة. ضحك وقال لي: «هل أنستك إقامتك الطويلة في إنجلترا العربي، أم تحسب أننا خواجات؟» قلت له: «لكنك ليلة أمس قرأت الشعر باللغة الإنجليزية».

غاضبي صمته. فقلت له: «من الواضح أنك شخص آخر غير ما تزعم. من الخير أن تقول لي الحقيقة». لم يبد عليه أي تأثر بالتهديد الذي ضمنته كلامي، ومضى يحفر حول الشجرة. ولما فرغ من حفره، قال وهو ينفض الطين عن يديه دون أن ينظر إلي:

«لا أدري ماذا قلت وماذا فعلت في الليلة الماضية. السكران لا يؤخذ على كلامه. إذا كنت قلت شيئاً، فهو كخترفة النائم، أو هذيان المحموم. ليست له قيمة. أنا هو هذا الشخص الذي أمامك، كما يعرفه كل أحد في البلد. لست خلاف ذلك، وليس عندي شيء أخفيه».

ذهبت إلى البيت، ورأسي يضحج بالأفكار. أنا واثق أن وراء «مصطفى» قصة، أو شيئاً لا يريد أن يبوح به. هل خانتني أذناي ليلة البارحة؟ الشعر الإنجليزي الذي قرأه، كان حقيقة. لم أكن سكران، ولم أكن نائماً، وصورته وهو جالس في ذلك المقعد، ممدداً رجليه، ممسكاً بالكأس بكلتا يديه، صورة واضحة لا مرأء فيها. هل أحدث أبي؟ هل أقول لمحجوب؟ لعل الرجل قتل أحداً في مكان ما وفر من السجن؟ لعله... لكن أية أسرار في هذا البلد؟ لعله فقد ذاكرته؟ يقال إن بعض الناس يصابون

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

«بالامنيزيا» إثر حادث. وأخيراً قررت أن أمهله يومين أو ثلاثة، فإذا لم يأتني بالحقيقة، كان لي معه شأن آخر.

لم يطل انتظاري، فقد جاءني مصطفى عشية ذلك اليوم. وجد أبي وأخوتي أيضاً. فقال إنه يريد أن يحدثني على انفراد. قمت معه، فقال لي: «هل تحضر إلى بيتي مساء غد؟ أريد أن أتحدث إليك». ولما عدت سألتني أبي: «ماذا يريد مصطفى؟» فقلت له إنه يريدني أن أفسر له عقداً بملكية أرض له في الخرطوم.

رحت إليه عند المغيب، فوجدته وحده، أمامه أنية شاي. عرض علي الشاي فأبيت، فقد كنت في الحقيقة أتمجّل سماع القصة. لا بد أنه قرر أن يقول الحقيقة. أعطاني سيجارة فقبلتها. تفرست في وجهه وهو ينفث الدخان ببطء، فبدأ هادئاً قوياً. أبعثت الفكرة، وأنا أنظر في وجهه، أن يكون قاتلاً. استعمل العنف يترك أثراً في الوجه لا تخطئه العين.

أما أنه فقد ذاكرته، فهذا محتمل. وأخيراً بدأ مصطفى يتحدث، ورأيت الطيف الساخر حول عينيه أوضح من أي وقت رأيته فيه. شيء محسوس، كأنه لمع البرق.

«سأقول لك كلاماً لم أقله لأحد من قبل. لم أجد سبباً لذلك قبل الآن. قررت هذا حتى لا يجمع خيالك، وأنت درست الشمرة. ضحك حتى يخفف حدة الاحتقار التي بدت في صوته وهو يقول هذا.

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

«خفت أن تذهب وتتحدث إلي الآخرين. تقول لهم إنني لست الرجل الذي أزعج. فيحدث... يحدث بعض الحرج، لي ولهم. لذا فإن لي عندك رجاء واحداً. أن تمدني بشرحك. أن تقسم لي بأنك لن تبوح لمخلوق بشيء مما سأحدثك به الليلة.»

ونظر إلي نظرة مركزة. فقلت له:

«هذا يعتمد على ما ستقوله لي. كيف أعذك وأنا لا أعلم عنك شيئاً؟».

فقال: «إنني أقسم لك بأن شيئاً مما سأقوله لك لن يؤثر على وجودي في هذا البلد. إنني رجل في كامل عقلي، مسالم، لا أحب لهذا البلد وأهله إلا الخير.»

لا أكتمك أنني ترددت. لكن اللحظة كانت مشحونة بالاحتمالات، وكان فضولي عارماً ليس له حد. خلاصة القول أنني وعدت وأقسمت، فدفعت مصطفى إلي برزمة أوراق وأوما لي أن أنظر فيها. فتحت ورقة فاذا هي وثيقة ميلاده.

مصطفى سعيد، من مواليد الخرطوم، 16 أغسطس عام 1898... الأب متوفاً، الأم فاطمة عبد الصادق، فتحت بعد ذلك جواز سفره، الاسم، المولد، البلد، كما في شهادة الميلاد. المهنة «طالب». تاريخ صدور الجواز عام 1916 في القاهرة وجدد في لندن عام 1926. كان ثمة جواز سفر آخر، إنكليزي، صدر في لندن عام 1929. قلبت صفحاته فاذا أختام كثيرة، فرنسية وألمانية وصينية دنماركية. كل هذا شحذ خيالي بشكل لا

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

يوسف، فلم أستطع المضي في تقليب صفحات جواز السفر، وانصرف ذهني عن بقية الأوراق. ولا بد أن وجهي كان مشحوناً بالترقب حين نظرت إليه. مضى مصطفى ينفث في دخان سيجارته برهة، ثم قال:....

كانت ليلة قاتظة من ليالي شهر يوليو، وكان النيل قد فاض ذلك العام أحد فيضاناته تلك، التي تحدث مرة كل عشرين أو ثلاثين سنة، وتصبح أساطير يحدث بها الآباء أبناءهم. وغمر الماء أغلب الأرض الممتدة بين الشاطئ وطرف الصحراء حيث تقوم البيوت، وبقيت الحقول كجزيرة وسط الماء. وكان الرجال يتنقلون بين البيوت والحقول في قوارب صغيرة، أو يقطعون المسافة سباحة، وكان مصطفى سعيد حسب علمي يجيد السباحة. حدثني أبي، فقد كنت في الخرطوم وقتها، أنهم سمعوا بعد صلاة المشاء صراخ نسوة في الحي، فهرعوا إلى مصدر الصوت فاذا الصراخ في دار مصطفى سعيد. كان عادته أن يعود من حقله مع مغيب الشمس، ولكن زوجته انتظرت دون جدوى. وذهبت تسأل عنه هنا وهناك، فأخبروها أنهم رأوه في حقله والبعض ظن أنه عاد إلى بيته مع بقية الرجال. وانكبت البلد كلها على الشاطئ. الرجال في أيديهم المصابيح وبعضهم في القوارب، وظلوا يبحثون الليل كله دون جدوى. وارسلوا إشارات تليفونية إلى مركز البوليس على امتداد النيل حق كرمه. ولكن الجثث التي حملها الموج إلى الشاطئ ذلك الأسبوع لم تكن بينها جثة

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

مصطفى سميد. وفي النهاية أخلدوا إلى الرأي انه لا بد قد مات غرقاً، وأن جثمانه قد استقر في بطون التماسيح التي يفض بها الماء في تلك المنطقة.

أما أنا، فإنه يخامرني ذلك الإحساس الذي اعتراني ليلة سمعته، فجأة وعلى غير استعداد مني، يقرأ شعراً إنكليزياً، وهو ممسك كأس الخمر بيده، دافئاً قامته في الكرسي، ممدداً رجليه، ضوء المصباح ينمكس على وجهه، وعيناه سارحتان كما خيل لي في أفاق داخل نفسه. والظلام حولنا في الخارج كأنه قوى شيطانية تتضافر على خنق ضوء المصباح. أحياناً تخطر لي فجأة تلك الفكرة المزعجة أن مصطفى سميد لم يحدث إطلاقاً، وأنه فعلاً أكذوبة، أو طيف أو حلم. أو كابوس. ألم بأهل القرية تلك، ذات ليلة داكنة خانقة، ولما فتحوا أعينهم مع ضوء الشمس لم يروه.

كان الليل قد بقي أقله حين قمت من عند مصطفى سميد، وخرجت وأنا أشعر بالتعب – ربما من طول الجلوس – ومع ذلك لم أكن أرغب في النوم، فمضيت أتسكع في شوارع البلد الضيقة المتمرجة، تلامس وجهي نسيمات الليل الباردة التي تهب من الشمال محملة بالندى، محملة برائحة زهور الطلح وروث البهائم، ورائحة الأرض التي رويت لتوها بالماء بعد ظمأ أيام، ورائحة قناديل الذرة في منتصف نضجها، وعبير أشجار الليمون. كان البلد كمادته صامتاً في تلك الساعة من الليل، إلا من مطلقته

مكنة الماء على الشاطئ ونباح كلب من حين لآخر. وصياح ديك منفرد أحس بالفجر قبل الأوان، يحاربه صياح ديك آخر. ثم يخيم الصمت. ومررت ببيت ود الريس الوطنيء عند منعطف الدرب، فرأيت من الطاقة الصغيرة ضوءاً خافتاً، وسمعت زوجة ود الريس تصرخ باللذة. وأحسست بالخجل لأنني اطلعت على أمر لم يكن من حقي أن أطلع عليه. لم يكن يحق لي أن أظل يقظاً أتسكع في شوارع البلد، وبقية الناس في أسرّتهم، إنني أعرف هذه القرية شارعاً شارعاً، وبيتاً بيتاً، وأعرف أيضاً القباب المشر وسط المقبرة في طرف الصحراء أعلى البلد. والقبور أيضاً، أعرفها واحداً واحداً، زرتها مع أبي وزرتها مع أمي وزرتها مع جدي، وأعرف ساكنيها الذين ماتوا قبل أن يولد أبي والذين ماتوا بعد ولادتي. وقد شيمت مع المشيمين منهم أكثر من مائة، أساعد في حفر التربة، وأقف على حافة القبر في زحام الناس ريثما يوسد الميت بحجارته، وأهيل التراب. فملت ذلك مع أهل البلد في الصباح، وفي حمارة القيظ أشهر الصيف، وبالليل في أيدينا المصاييح. والحقول أيضاً أعرفها، منذ كانت سواقي، وأيام القمح حين هجرها الرجال وتحولت الأرض الخصبة أرضاً بلقماً تسفوها الريح. ثم جاءت مكينات الماء وجاءت الجمميات التعاونية، وعاد من نزع من الرجال، وعادت الأرض كما كانت، تنتج الذرة في الصيف والقمح في الشتاء. كل هذا رأيته منذ فتحت عيني على الحياة، ولكنني أبدأ لم أزر القرية في مثل هذه الساعة في أواخر الليل. لا بد أن تلك النجمة الكبيرة الزرقاء

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

المتوهجة هي نجمة الصباح. السماء تبدو أقرب إلى الأرض في مثل هذه الساعة. قبيل الفجر، والبلد يلفها ضوء باهت يجعلها كأنها معلقة بين السماء والأرض.

وتذكرت وأنا أعبر رقعة الرمل التي تفصل بين بيت ود الرئيس وبيت جدي، تلك الصورة التي رسمها مصطفى سعيد، تذكرتها بنفس إحساس الخجل الذي اعتراني حين سمعت مناغاة ود الرئيس مع زوجته. فخذان بيضاوان مفتوحتان. ووصلت عند بيت جدي فسمعته يتلو أوراده استعداداً لصلاة الصبح. ألا ينام أبداً؟ صوت جدي يصل. كان آخر صوت أسمعه قبل أن أنام وأول صوت أسمعه حين أستيقظ. وهو على هذه الحال لا أدري كم من السنين كأنه شيء ثابت وسط عالم متحرك، وأحسست فجأة بروحي تنتمش كما يحدث أحياناً إثر إرهاق طويل، وصفا ذهني، وتبخرت الأفكار السوداء التي أثارها حديث مصطفى سعيد. البلد الآن ليس معلقاً بين السماء والأرض. ولكنه ثابت، البيوت ثابتة؟ والشجر، شجر، والسماء صافية ولكنها بعيدة؟ قال إنه أكذوبة؟ فهل أنا أيضاً أكذوبة؟ إنني من هنا. أليست هذه حقيقة كافية؟ لقد عشت أيضاً معهم، ولكنني عشت معهم على السطح، لا أحبهم ولا أكرههم. كنت أطوي ضلوعي على هذه القرية الصغيرة، أراها بعين خيالي أينما التفت. أحياناً في أشهر الصيف في لندن، إثر هطلة مطر. كنت أشم رائحتها. في لحظات خاطفة قبيل مغيب الشمس، كنت أراها. في أخريات الليل، كانت الأصوات الأجنبية تصل إلى أذني كأنها أصوات أهلي

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

هنا. أنا، لا بد، من هذه الطيور التي لا تبيض إلا في بقعة واحدة من العالم. صحيح أنني درست الشعر، بيد أن هذا لا يعني شيئاً. كان من الممكن أن أدرس الهندسة أو الزراعة أو الطب. كلها وسائل لكسب الميـش. الوجوه هناك، كنت أتخيلها، قمحية أو سوداء، فتبدو وجوهاً لقوم أعرفهم. هناك مثل هنا، ليس أحسن ولا أسوأ.

ولكنني من هنا، كما أن النخلة القائمة في فناء دارنا، نبتت في دارنا ولم تنبت في دار غيرها. وكونهم جاءوا إلى ديارنا، لا أدري لماذا، هل معنى ذلك أننا نسمم حاضرتنا ومستقبلنا، أنهم سيخرجون من بلادنا إن عاجلاً أو آجلاً. كما خرج قوم كثيرون عبر التاريخ من بلاد كثيرة. سكك الحديد، والبواخر، والمستشفيات والمصانع، والمدارس، ستكون لنا، وسنتحدث لقتهم، دون إحساس بالذنب ولا إحساس بالجميل. سنكون كما نحن، قوم عاديون، وإذا كنا أكاذيب، فنحن أكاذيب من صنع أنفسنا.

مثل هذه الأفكار أوصلتني إلى فراشي، وصاحبتي بعد ذلك إلى الخرطوم حيث تسلمت عملي في مصلحة المعارف. مات مصطفى سعيد منذ عامين ولكنني ما أفنت أقالبه من حين لآخر. لقد عشت خمسة وعشرين عاماً، وأنا لم أسمع به ولم أره، ثم، هكذا فجأة أجده في مكان لا يوجد فيه أمثاله. وإذا بمصطفى سعيد، رغم إرادتي، جزء من عالمي، فكرة في ذهني، طيف لا يريد أن يمضي في حال سبيله، وإذا إحساس بعيد بالخوف، بأنه

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

من الجائز ألا تكون البساطة هي كل شيء. مصطفى سعيد قال إن جدي يعرف السر. الشجرة تنمو ببساطة، وجدك عاش وسيموت ببساطة. هكذا. لكن هب أنه كان يسخر من بساطتي؟ في رحلة بالقطار بين الخرطوم الأبيض، كان معي في نفس القمرة موظف متقاعد. حين تحرك القطار من كوستي كان الحديث قد وصل بنا إلى أيام دراسته. وعلمت منه أن عدداً من رؤسائي في وزارة المعارف كانوا ممارسيه في المدرسة، وبعضهم كان يزامله في نفس الفصل. ومضى الرجل يذكر أن فلاناً في وزارة الزراعة كان زميله، والمهندس فلاناً كان في الفصل الذي أمامه، وفلاناً، التاجر الذي اغتنى أيام الحرب، كان من أبلد خلق الله في فصلهم. والجراح الشهير فلاناً كان أحسن جناح أيمن في المدرسة كلها أيامهم. وفجأة رأيت وجه الرجل يضيء، وعينيه تلمعان، وقال في صوت متحمس منفعل: «غريبة. تصور أنني نسيت أنبغ تلميذ في فصلنا، ولم يخطر على بالي منذ ترك المدرسة. الآن فقط تذكرته. نعم، مصطفى سعيد».

مرة أخرى ذلك الإحساس. بأن الأشياء العادية أمام عينيك تصبح غير عادية. رأيت نافذة القمرة وبابها يلتقيان، وخيل لي أن الضوء المنعكس على نظارة الرجل، في لحظة لا تزيد عن طرفة العين، يتوهج توهجاً خاطفاً كأنه شمس في رابعة النهار. ولا بد أن الدنيا في تلك اللحظة بدت مختلفة بالنسبة للمأمور المتقاعد أيضاً، إذ أن تجربة كاملة كانت خارج وعيه أصبحت

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

فجأة في متناول اليد. حين رأيت وجهه أول مرة، قدرت أنه في منتصف الستين. وأنظر إليه الآن وهو يستطرد في سرد ذكرياته البعيدة. فأرى رجلاً لا يزيد يوماً واحداً عن الأربعين.

«نعم، مصطفى سعيد كان أنبغ تلميذ في أيامنا. كنا في فصل واحد. كان يجلس في الصف الذي أمام صفنا مباشرة. ناحية اليسار. يا للفرابة. كيف لم يخطر على بالي قبل الآن مع أنه كان ممجزة في ذلك الوقت؟ كان أشهر طالب في كلية غردون. أشهر من أعضاء التيم لكرة القدم. ورؤساء الداخليات، والخطباء في الليالي الأدبية، والكتّاب في جرائد الحائط، والممثلين الدائمي الصيت في فرق الدراما. لم يكن له نشاط من هذا القبيل إطلاقاً. كان منمزلًا ومتعالياً، يقضي أوقات فراغه وحده. إما في القراءة أو في المشي مسافات طويلة. كنا جميعاً داخلين تلك الأيام، في كلية غردون حتى أبناء العاصمة المثلثة. كان نابغة في كل شيء، لم يوجد شيء يستعصي على ذهنه المجيب. كان المدرسون يكلموننا بلهجة ويكلمونه هو بلهجة أخرى. خصوصاً مدرسو اللغة الإنجليزية، كانوا كأنما يلقون الدرس له وحده دون بقية التلاميذ».

وصمت الرجل برهة، فأحسست برغبة شديدة أن أقول إنني أعرف مصطفى سعيد، وإن الظروف ألقت بي في طريقه، فتص علي، ذات ليلة مظلمة قاتظة، قصة حياته، وأنه قضى آخر أيامه في قرية مغمورة الذكر عند منحنى النيل، وأنه مات غرقاً، وربما

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

انتحاراً، وجمالني أنا دون سائر الناس وصياً على ولديه. لكنني لم أقل شيئاً، إنما المأمور المتقاعد هو الذي استطرد:

قطع مصطفى سعيد مرحلة التعليم في السودان قفزاً. كان بالفعل كأنه يسابق الزمن. وبينما ظللنا نحن بمده في كلية غردون، أرسل هو في بعثة إلى القاهرة وبمدها إلى لندن. كان أول سوداني يرسل في بعثة إلى الخارج. كان ابن الإنكليز المدلل. وكنا جميعاً نحسده، ونتوقع أن يصير له شأن عظيم. نحن كنا نتلق الكلمات الإنكليزية كأنها كلمات عربية. لا نستطيع أن نسكن حرفين متتاليين. أما مصطفى سعيد فقد كان يموج فمه، ويمط شفثيه، وتخرج الكلمات من فمه كما تخرج من أفواه أهلها. كان ذلك يملؤنا غيظاً والحقد «الإنكليزي الأسود». وعلى أيامنا، كانت اللغة الإنكليزية هي مفتاح المستقبل. لا تقوم لأحد قائمة بدونها. كلية غردون كانت مدرسة ابتدائية. كانوا يمطونها من العلم ما يكفي فقط لملء الوظائف الحكومية الصغرى. أول ما تخرجت، اشتغلت محاسباً في مركز الفاشر. وبعد جهد جهيد قبلوا أن أجلس لامتحان الإدارة. وقضيت ثلاثين عاماً نائباً مأمور. تصور. وقبل أن أحال على المعاش بعامين اثنين فقط رقيت مأموراً. كان مفتش المركز الإنكليزي إلهاً يتصرف في رقعة أكبر من الجزر البريطانية كلها. يسكن في قصر طويل عريض مملوء بالخدم ومحاط بالجند. وكانوا يتصرفون كالألهة. يسخروننا نحن الموظفين الصفار أولاد البلد لجلب الموائد، ويتذمر الناس منا

ويشكون إلى المفتش الإنكليزي. وكان المفتش الإنكليزي. طبعا هو الذي يغفر ويرحم. هكذا غرسوا في قلوب الناس بفضنا، نحن أبناء البلد، وحبهم هم المستعمرون الدخلاء. وتأكد من كلامي هذا يا بني ألم تستقل البلد الآن؟ ألم تصبح أحراراً في بلادنا؟ تأكد أنهم احتضنوا أرذال الناس. أرذال الناس هم الذين تبوأوا المراكز الضخمة أيام الإنكليز. كنا واثقين أن مصطفى سميد سيصير له شأن يذكر. كان أبواه من العبايدة. القبيلة التي تعيش بين مصر والسودان. إنهم الذين هربوا سلاطين باشا من أسر الخليفة عبد الله التمايشي، ثم بعد ذلك عملوا وراداً لجيش كتشنر حين استعاد فتح السودان. ويقال إن أمه كانت رقيقاً من الجنوب. من قبائل الزاندي أو الباريا، الله أعلم. الناس الذين ليس لهم أصل، هم الذين تبوأوا أعلى المراتب أيام الإنكليز.

وكان المأمور المتقاعد يخط في نوم مريح، حين مر القطار على خزان سنار، الخزان الذي بناه الإنكليز عام 1926، متجهاً غرباً إلى الأبيض، على خط حديدي وحيد، ممتد عبر الصحراء، كأنه جسر من الحبال بين جبلين شرسين، بينهما هوة سحيقة ليس لها قرار. مسكين مصطفى سميد. كان مفروضاً أن يكون له شأن بمقاييس المفتشين والمأمير. ولكنه لم يجد حتى قبراً يريح جسده، في هذا القطر الممتد مليون ميل مريح. وتذكرت ما قاله: إن القاضي قبل أن يصدر عليه الحكم في الأولد بيلي قال له: «إنك يا مستر مصطفى سميد، رغم تفوقك العلمي، رجل غبي.

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

إن في تكوينك الروحي بقعة مظلمة، لذلك فإنك قد بددت أنبل طاقة يمنحها الله للناس: طاقة الحب. وتذكرت أيضاً أنني حين خرجت من بيت مصطفى سعيد تلك الليلة، كان القمر الماحق قد ارتفع مقدار قامة الرجل في الأفق الشرقي، وأنتي قلت في نفسي إن القمر مقلّم الأظافر. لا أدري لماذا خيل لي أن القمر مقلّم الأظافر؟.

وفي الخرطوم أيضاً، عرض لي طيف مصطفى سعيد، بعد محادثتي مع المأمور المتقاعد بأقل من شهر، كأنه جن أطلق من سجنه. سيظل بعد ذلك يوسوس في أذان البشر، ليقول ماذا؟ لا أدري. كنا في بيت شاب سوداني يحاضر في الجامعة، كنا أنا وهو زملاء دراسة في إنكلترا. وكان بين الحاضرين رجل إنكليزي يعمل في وزارة المالية، وصل بنا الحديث إلى موضوع الزواج المختلط. وتحول الحديث من نقاش عمومي إلى كلام عن حالات محددة. ثم من هم المتزوجون من أوروبيات؟ ثم من إنكليزيات؟ من هو أول سوداني تزوج إنكليزية؟ فلان؟ لا. فلان؟ لا. وفجأة... مصطفى سعيد. قالها الشاب المحاضر في الجامعة، وعلى وجهه إحساس الفرحة ذاته الذي لمحتة على وجه المأمور المتقاعد. ومضى الشاب يقول، تحت سماء الخرطوم المرصعة بالنجوم في أوائل فصل الشتاء: «مصطفى سعيد كان أول سوداني تزوج إنكليزية، بل إنه كان أول سوداني تزوج أوروبية إطلاقاً. أظن أنكم لم تسمموا به، فقد نزع من زمن، تزوج في إنكلترا وتجنس

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

بالجنسية الإنكليزية. غريب أن احداً هنا لا يذكره، مع أنه قام بدور خطير في مؤامرات الإنكليز في السودان في أواخر الثلاثينات. إنه من أخلص اعوانهم. وقد استخدمته وزارة الخارجية البريطانية في سفارات مريبة في الشرق الأوسط. وكان من سكرتيري المؤتمر الذي انعقد في لندن سنة 1936. إنه الآن مليونير، ويعيش كاللوردات في الريف الإنكليزي.

«وسمعت نفسي أقول دون وعي، بصوت مسموع: مصطفى سميد ترك، بعد موته، ستة أفدنة، وثلاث بقرات وثوراً، وحمارين، وإحدى عشرة عنزاً، وخمس نمجات، وثلاثين نخلة، وثلاثاً وعشرين شجرة بين سنط وطلع وحرارز وخمساً وعشرين شجرة ليمون ومثلها برتقال، وتسعة أرادب قمح وتسمة ذرة، وبيتاً مكوّناً من خمس غرف، وديوان، وغرفة واحدة من الطوب الأحمر، مستطيلة الشكل، ذات نوافذ خضراء، سقفها ليس مسطحاً كبقية الغرف ولكنه مثلث كظهر الثور، وتسماية وسبعة وثلاثين جنيهاً وثلاثة قروش وخمسة ملاليم نقداً».

في لحظة لا تزيد عن مقدار ما يشيل البرق ثم يختفي، رأيت في عيني الشاب الجالس قبالي شموراً واضحاً حياً ملموساً، بالذعر رأيته في اتساع حدق العينين، وارتعاش الجفن وارتخاء الفك الأسفل. اذا لم يكن خائفاً فلماذا سألني هذا السؤال: «هل أنت ابنه؟».

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

سألني هكذا دون أن يدري هو الآخر لماذا نطلق بهذه الكلمات الثلاث، وهو يعلم تمام العلم من أنا. إنه لم يكن زميلي في الدراسة، لكننا كنا في إنجلترا في وقت واحد، وقد جمعتنا مناسبات عدة وشربنا البيرة أكثر من مرة معاً، في حانات نايتسبرج. هكذا في لحظة خارج حدود الزمان والمكان، تبدو له الأشياء هو الآخر، غير حقيقة. يبدو له كل شيء محتملاً. هو أيضاً قد يكون ابن مصطفى سميد، أو أخاه أو ابن عمه. العالم في تلك اللحظة القصيرة، بمقدار ما يطوف جفن المين، احتمالات لا حصر لها، كأن آدم وحواء سقطا لتوهما من الجنة.

كل تلك الاحتمالات استقرت على حال واحد حين ضحكت وعاد العالم كما كان، أشخاصاً ذوي وجوه معروفة وأسماء معروفة ومهن معروفة، تحت سماء الخرطوم المرصعة بالنجوم أوائل فصل الشتاء. ضحك هو الآخر وقال: «يا لي من مجنون! طبعاً أنت لست ابن مصطفى سميد ولا قريبه، وأنت لم تسمع به من قبل في حياتك. انني نسيت انكم معشر الشعراء، لكم سرحات وشطحات».

وفكرت في شيء من المرارة، أنني في زعم الناس شاعر، سواء أردت أو لم أرد، لأنني قضيت ثلاثة أعوام انقب في حياة شاعر مغمور من شعراء الإنكليز، وعدت لأدرس الأدب الجاهلي في المدارس الثانوية قبل أن يرقوني مفتشاً للتعليم الابتدائي.

وهنا تدخل الرجل الإنكليزي وقال إنه لا يدري صحة ما قيل

د. كمال عبد الملك و منى الكحلة

عن الدور الذي لعبه مصطفى سعيد في مؤامرات السياسة الإنكليزية في السودان. الذي يملئه ان مصطفى سعيد لم يكن اقتصادياً يركن إليه: «انني قرأت بعض ما كتب عما اسماه اقتصاد الاستعمار. الصفة الغالبة على كتاباته أن احصائياته لم يكن يوثق بها. كان ينتمي إلى مدرسة الاقتصاديين الفايانيين الذين يختفون وراء ستار التعميم هروباً من مواجهة الحقائق المدعمة بالأرقام. العدالة، المساواة، الاشتراكية... مجرد كلمات. رجل الاقتصاد ليس كاتباً كتشارلز دكنز، ولا سياسياً كروزفلت. إنه أداة، آلة، لا قيمة لها بدون الحقائق والأرقام والإحصائيات. أقصى ما يستطيع أن يفعله هو أن يحدد العلاقة بين حقيقة وأخرى، بين رقم وآخر. أما أن تجعل الأرقام تقول شيئاً دون آخر، فذلك شأن الحكام ورجال السياسة. الدنيا ليست في حاجة إلى مزيد من رجال السياسة. لا. مصطفى سعيد هذا لم يكن اقتصادياً يوثق به».

وسألته إن كان قد قابل مصطفى سعيد.

«لا. إنني لم أقابله. كان قد ترك أكسفورد قبلي بمدة لكنني سمعت نتفاً هنا وهناك. يظهر أنه كان زير نساء. خلق لنفسه أسطورة من نوع ما. الرجل الأسود الوسيم، المدلل في الأوساط البوهيمية. كان كما يبدو واجهة يعرضها أفراد الطبقة الأرستقراطية الذين كانوا في العشرينات وأوائل الثلاثينات يتظاهرون بالتححرر. ويقال إنه كان صديقاً للورد فلان ولورد

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

علان، وكان أيضاً من الأثيرين عند اليسار الإنكليزي. ذلك من سوء حظه، لأنه يقال إنه كان ذكياً. لا يوجد على وجه الأرض أسوأ من الاقتصاديين اليساريين، حتى منصبه الأكاديمي - لا أدري تماماً ماذا كان - يخيل إلي أنه حصل عليه لأسباب من هذا النوع. كأنهم أرادوا أن يقولوا: أنظروا كم نحن متسامحون ومتحررون! هذا الرجل الأفريقي كأنه واحد منا! إنه تزوج ابنتنا ويممل معنا على قدم المساواة، هذا النوع من الأوروبيين لا يقل شراً، لو تدرّون، عن المجانين الذين يؤمنون بتفوق الرجل الأبيض في جنوبي أفريقيا وفي الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة. نفس الطاقة الماطفية المتطرفة، تتجه إلى أقصى اليمين أو أقصى اليسار. لو أنه فقط تفرغ للملم لوجد أصدقاء حقيقيين من جميع الأجناس، ولكنكم قد سمعتم به هنا. كان قطعاً سيمود وينفع بعلمه هذا البلد الذي تتحكم فيه الخرافات. ها أنتم الآن تؤمنون بخرافات من نوع جديد. خرافة التصنيع، خرافة التأميم الوحيدة العربية خرافة الوحدة الأفريقية. إنكم كالأطفال تؤمنون أن في جوف الأرض كنزاً ستحصلون عليه بممجة، وستحلون جميع مشاكلكم، وتقيمون فردوساً. أو هام، أحلام يقظة. عن طريق الحقائق والأرقام والإحصائيات، يمكن أن تقبلوا واقعكم وتتمايشوا معه وتحاولوا التغيير في حدود طاقاتكم. وقد كان بوسع رجل مثل مصطفى سعيد ان يلعب دوراً لا بأس به في هذا السبيل. ولو انه لم يتحول إلى مهرج بين يدي حفنة من الإنكليز الممتوهين.

وبينما انبرى منصور يفند أراد رتشارد، أخذت أنا إلى أفكارى ما جدوى النقاش؟ هذا الرجل - رتشارد - هو الآخر متمصب. كل أحد متمصب بطريقة أو باخرى. لعلنا نؤمن بالخرافات التي ذكرها، ولكنه يؤمن بخرافة جديدة، خرافة عصرية، هي خرافة الإحصائيات. ما دمنا سنؤمن به، فليكن إلهاً قادراً على كل شيء. أما الإحصائيات! الرجل الأبيض، لمجرد أنه حكمنا في حقبة من تاريخنا، سيظل أمداً طويلاً يحس نحونا بإحساس الاحتقار الذي يحسه القوي تجاه الضعيف. مصطفى سعيد قال لهم: «إنني جئتكم غازياً. عبارة ميلودرامية ولا شك. لكن مجيئهم، هم أيضاً، لم يكن مأساة كما تصور نحن، ولا نعمة كما يصورون هم. كان عملاً ميلودرامياً سيتحول مع مرور الزمن إلى خرافة عظمى. وسمعت منصور يقول لرتشارد: «لقد نقلتم إلينا مرض اقتصادكم الرأسمالي. ماذا أعطيتمونا غير حفنة من الشركات الاستعمارية نزلت دماءنا وما تزال؟» وقال له رتشارد: «كل هذا يدل على أنك لا تستطيمون الحياة بدوننا. كنتم تشكون من الاستعمار، ولما خرجنا خلقتهم أسطورة الاستعمار المستتر. يبدو أن وجودنا، بشكل واضح أو مستتر، ضروري لكم كالماء والهواء. ولم يكونا غاضبين. كانا يقولون كلاماً مثل هذا ويضحكان على مرمى حجر من خط الاستواء، تفصل بينهما هوة تاريخية ليس لها قرار.

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

دخلت الماء عارياً تماماً كما ولدتني أمي. أحسست برجفة أول ما لامست الماء البارد، ثم تحولت الرجفة إلى يقظه. النهر ليس ممثلاً كأيام الفيضان ولا صغير المجرى كأيام التحاريق لقد اطفأت الشموع واغلقت باب الغرفة واغلقت باب الحوش دون أن أفعل شيئاً. حريق آخر لا يقدم ولا يؤخر. تركته يتحدث وخرجت لم أدعه يكمل القصة. فكرت أن أذهب وأقف على قبرها. فكرت أن أرمي المفتاح حيث لا يجده أحد. ثم عدلت. أعمال لا معنى لها ومع ذلك لا بد من القيام بعمل ما. وقادتني قدمي إلى الشاطئ وقد لاحت تباشير الفجر في الشرق. سأنفس عن غيظي بالسباحة. كانت الأشياء على الشاطئين نصف واضحة، تبين وتختفي، بين النور والظلام. كان النهر يدوي بصوته القديم المألوف، متحركاً كأنه ساكن لا صوت غير دوي النهر ومقطعة مكينات الماء غير بعيد. وأخذت أسبح نحو الشاطئ الشمالي. وظللت أسبح واسبح حتى استقرت حركات جسمي مع قوى الماء إلى تناسق مريح. لم أعد أفكر وأنا أتحرك إلى الأمام على سطح الماء وقع ضربات ذراعي في الماء. وحركة ساقي، وصوت زفيزي بالنفس، ودوي النهر، وصوت المكنة تطلق على الشاطئ لا أصوات غير ذلك. ومضيت أسبح وأسبح وقد استقر عزمي على بلوغ الشاطئ الشمالي. هذا هو الهدف. كان الشاطئ أمامي يملو ويهبط، والأصوات تنقطع كلية ثم تضج. وقليلًا قليلًا لم أعد أسمع سوى دوي النهر. ثم أصبحت كأنني في بهو واسع تتجاوب

أصدائه. والشاطئ يعلو ويهبط ودوي النهر يغور ويظفو. كنت أرى أمامي نصف دائرة. ثم أصبحت بين العمى والبصر. كنت أعني ولا أعني. هل أنا نائم أم يقظان؟ هل أنا حي أم ميت؟ ومع ذلك كنت ما أزال ممسكاً بخيط رفيع واهن: الإحساس بأن الهدف أمامي لا تحتي. وأنني يجب أن أتحرك إلى أمام لا إلى أسفل. لكن الخيط وهن حتى كاد ينقطع، ووصلت إلى نقطة أحسست فيها أن قوى النهر في القاع تشدني إليها. سرى الخدر في ساقي وفي ذراعي، اتسع البهو وتسارع تجارب الأصداء. الآن. وفجأة، وبقوة لا أدري من أين جاءتني، رفعت قامتي في الماء. سمعت دوي النهر وطقطة مكنة الماء. تلفت يمناً ويسرة فإذا أنا في منتصف الطريق بين الشمال والجنوب. لن أستطيع المضي ولن أستطيع العودة. انقلبت على ظهري وظللت ساكناً أحرك ذراعي وساقني بصموبة بالقدر الذي يبقيني طافياً على السطح. كنت أحس بقوى النهر الهدامة تشدني إلى أسفل وبالتيار يدفعني إلى الشاطئ الجنوبي في زاوية منحنية. لن أستطيع ان احفظ توازني مدة طويلة. ان عاجلاً أو آجلاً ستشدني قوى النهر إلى القاع. وفي حالة بين الحياة والموت رأيت أسراباً من القطى متجهة شمالاً. هل نحن في موسم الشتاء أو الصيف؟ هل هي رحلة أم هجرة؟ وأحسست انني أستسلم لقوى النهر الهدامة. أحسست بساقي تجران بقية جسمي إلى أسفل. في لحظة لا أدري هل طالت أم قصرت تحول دوي النهر إلى ضوضاء مجلجلة. وفي

صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث

اللحظة عينها لمحت ضوءاً حاداً كأنه لمع برق. ثم ساد السكون والظلام فترة لا أعلم طولها، بعدها لمحت السماء تبعد وتقرب والشاطئ يعلو ويهبط. وأحسست فجأة برغبة جارفة إلى سيجارة. لم تكن مجرد رغبة. كانت جوعاً. كانت ظمأً. وقد كانت تلك لحظة اليقظة من الكابوس، استقرت السماء واستقر الشاطئ، وسمعت طقطقة مكنة الماء، وأحسست ببرودة الماء في جسمي. كان ذهني قد صفا حينئذ. وتحددت علاقتي بالنهر. إنني طاف فوق الماء ولكنني لست جزءاً منه. فكرت أنني إذا مت في تلك اللحظة فإنني أكون قد مت كما ولدت، دون إرادتي. طول حياتي لم أختار ولم أقرر. إنني أقرر الآن أنني أختار الحياة. سأحيا لأن ثمة أناس قليلين أحب أن أبقى معهم أطول وقت ممكن ولأن علي واجبات يجب أن أؤديها. لا يعني إن كان للحياة معنى أو لم يكن لها معنى. إذا كنت لا أستطيع أن أغفر فسأحاول أن أنسى. سأحيا بالقوة والمكر. وحركت قدمي وذراعي بصموية وعنف حتى صارت قامتي كلها فوق الماء. وبكل ما بقيت لي من طاقة صرخت، وكأنني ممثل هزلي يصبح في مسرح: «النجدة. النجدة».

انتهت

المحتويات

تمهيد: صورة أوروبا في الأدب العربي الحديث من	
طه حسين إلى الطيب الصالح	5
المقدمة: أوروبا والإسلام، ولم لا يتفاهمان؟ محمد	
حسين هيكل	9
مختارات: من النصوص الروائية	25
«أديب»، طه حسين (1935)	27
عصفور من الشرق: توفيق الحكيم (1938)	83
قنديل أم هاشم: يحيى حقي (1944)	109
الحي اللاتيني: سهيل ادريس (1954)	131
موسم الهجرة إلى الشمال: الطيب صالح (1967) ..	177
المحتويات	215

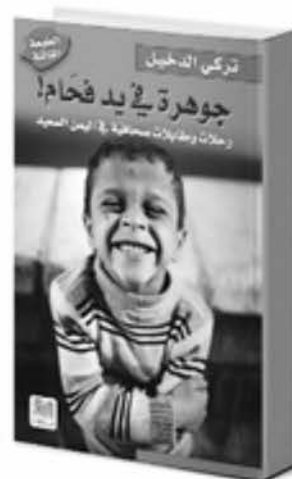
منتدی سور الازبکیہ

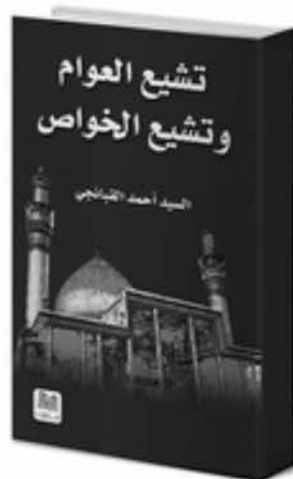
WWW.BOOKS4ALL.NET

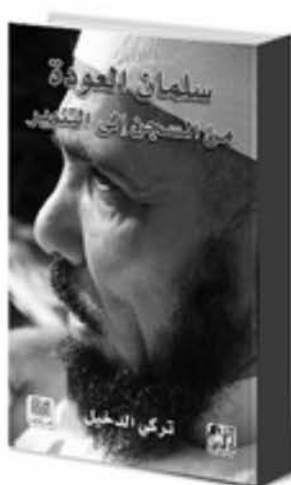
[*https://twitter.com/SourAlAzbakya*](https://twitter.com/SourAlAzbakya)

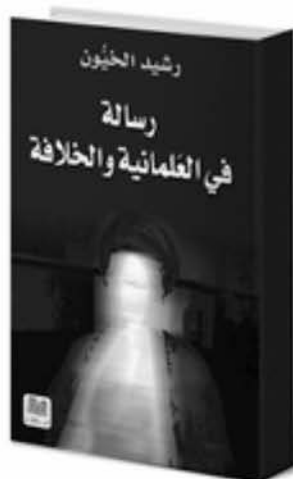
<https://www.facebook.com/books4all.net>

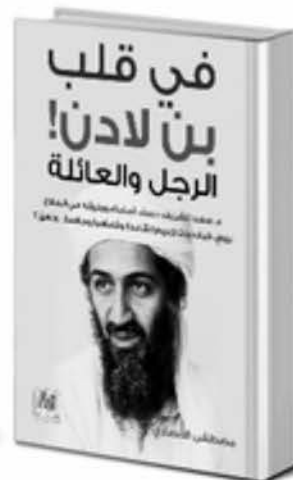
من إصدارات **مدارك** Madarek













منتدی سور الأزبکیۃ

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://twitter.com/SourAlAzbakya>

في هذا الكتاب نماذج مهمة من الروايات العربية التي وقعت أحداثها في أوروبا وقدمت شخصيات أوروبية وهي تغطي الفترة الواقعة بين 1935 وحتى عام 1967.

هذه الروايات يمكن أن نسميها «روايات المغتربين» وهي مرّت بثلاث مراحل: الأولى يكون فيها بطل الرواية قد حمل كلّ عاداته المحلية معه إلى بيئته الجديدة في الغربية، أي ان انتقاله إلى أوروبا كان انتقالاً مكانياً. ويمثل هذه المرحلة خير تمثيل توفيق الحكيم. في المرحلة الثانية يكون فيها البطل قد درس في أوروبا وحصل على شهادة، وعاد إلى بلده من دون أن يتمكن من الانسجام مع بيئته الأولى.

تمثّل هذه المرحلة رواية «قنديل أم هاشم» ليعحي حقي، و«موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح. المرحلة الثالثة هي ما يمرّ بها الروائيون المغتربون في الوقت الحاضر، وفيها يدرس البطل الروائي في الغرب، ولكن الغرب هنا أصبح أمريكا.

ISBN 978-9953-566-36-8



9 789953 566368

Madarek مدارك

إبداع، نشر، ترجمة وتحرير

Creating, Publishing, Translating & Arabizing